
مصير العرب ومصيرنا
تاريخ تحرر
جان بيير فيليو
ترجمة: سالم عوني

مصير العرب ومصيرنا

تاريخ تحرر

جان بيير فيليو

ترجمة

سالم عوني



معلومات الكتاب الأصلي باللّغة الفرنسية:

Les Arabes, leur destin et le nôtre

Histoire d›une libération

Autheur: Jean-Pierre FILIU

ISBN: 9782707186614

الفهرسة في أثناء النشر – مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر
مصير العرب ومصيرنا، تاريخ تحرر/ جان بيير فيليو
ترجمة: سالم عوني
196 ص.؛ 21 سم.
يشتمل على فهرس عام.



Printed book ISBN: 978-605-2260-65-4
E-book ISBN: 978-605-2260-66-1

العنوان بالإنكليزية

Arabs, Their Destiny and Ours
Author: Jean Pierre Filiu
Translator: Salem Auni



هاتف
باريس، فرنسا : 0033 6 25 77 62 61
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871

البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

الطبعة الأولى

إسطنبول، تركيا - كانون الأول / ديسمبر 2018

المحتويات

فمادة العرض التي تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال، وغير ذلك من صفات الكمال. ويدخل في العرض أيضًا العفاف، فإنهم تقل فيهم دناءة النفس، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب، والمركوزة في طباعهم الشريفة، وإن كانت الآن قد تلاشت فيهم، واضمحلت فإنما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم، ونكبات الدهر، وأحوجهم الحال إلى التذلل والسؤال.

رفاعة الطهطاوي

كتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريس

في وصف الثورة الفرنسية في تموز/ يوليو 1830

إذا الشعب يومًا أراد الحياة	فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليـــل أن ينجـــــلي	ولا بد للقيد أن ينكســـر

أبو القاسم الشابي 1933

من 7 إلى 9 كانون الثاني/ يناير سقط سبعة عشر شخصًا في باريس تحت ضربات من همجية تبدو من عصر آخر، ومع ذلك لم تكن سوى حلقة مأسوية من المواجهات مع ظلامية قادرة على ارتكاب أسوأ الفظائع. إعطاء معنى لهذه المحنة سوف يسهم في تقليل آثارها الشاذة. استعادة الزمن الطويل للتحرر يعيد فتح آفاق الأمل والالتزام.

أهدي هذا الكتاب إلى كل الذين –من محمد بوعزيزي إلى شيماء الصباغ– ماتوا في هذه السنوات الأخيرة من أجل الحرية؛ معركتهم هي معركتنا، لأننا لن نكون أبدًا أحرارًا حقًا إذا لم يكونوا هم أيضًا كذلك.

هذا النص ما كان له أن يرى النور لولا الثقة التي منحني إياها أوج جالون، ومن دون القراءة المتأنية لهنري لورنس، وكذلك لماتيو سيمينو ودييجو فيلو، فشكرًا لهم جميعًا.

مدخل فرنسي

(1801-1798)

أربع صور وصدمة مؤسسة

مقبرة العظماء في باريس لا تضم فقط (العظماء) الذين يعبر لهم الوطن عن امتنانه. توجد لوحة جدارية للفنان هنري ليبولد - ليفي تصور شارلمان يستقبل سفارة من هارون الرشيد خليفة بغداد الذي حكم من 789 إلى 809، ويمثل حكمه العصر الذهبي للخلافة العباسية؛ واللوحة التي رسمت عام 1881، وهي السنة نفسها التي فرضت فيها فرنسا الحماية على تونس، تعيد إنتاج حكاية إعطاء مبعوثي الخليفة مفاتيح القبر المقدس في القدس لشارلمان. وقد تبادل الحاكمان القويان في ذلك العصر السفارات، وكذلك إرسال وفود محملة بهدايا بوصفها علامة على علاقات سلمية. ولكن بطريرك القدس هو الذي حمل رمزيًا مفاتيح الـقبر المقدس لشارلمان بمناسبة تتويجه إمبراطورًا للغرب في روما عام 800.

لقد أكد هارون الرشيد لشارلمان من خلال سفارتين تم استقبالهما في إيكس لاشابل عامي 802 و807، الحماية التي تمنحها الخلافة للأماكن المقدسة في القدس وللحجاج الغربيين.

ثاني هذه الصور هي مقبرة لويس التاسع الموجودة في الضاحية الشمالية لمدينة تونس؛ حيث مات من المرض عام 1270 قبل أن يتم ترسيمه قديسًا بعد ذلك بسبعة وعشرين عامًا. هذه المقبرة المقامة في ظلال الكنيسة القديمة في قرطاج فارغة. هناك ضريح فخم شيد للقديس لويس داخل الكنيسة الملكية في سان دوني، في حين أن

رفات الملك سوف يتوزع في كثير من البلاطات الملكية في أوروبا. يغلق موت القديس لويس في أثناء الحصار الفاشل لتونس الدائرة التي استمرت قرنين من الزمن من الحملات الصليبية على بلاد الشام، وقد برع فيها الفرسان الفرنسيون على الخير والشر، ولا سيما على رأس المملكة اللاتينية العابرة في القدس. أطلق لويس التاسع حملة صليبية على مصر، وهي الحملة السابعة التي أخفقت في عام 1250. ولقد أسرت القوات المسلمة الملك، ولم يُفرَج عنه إلا بعد دفع دية مرتفعة. وهذه الكارثة لم تثنه عن القيام بعد ذلك بعشرين عامًا بالحملة الحاسمة على تونس؛ وهي الثامنة والأخيرة.

الصورة الثالثة أكثر توافقًا مع روح الصورة الأولى. في عام 1536 انخرط فرانسوا الأول في حلف مع السلطان العثماني سليمان؛ المدعو بـ (العظيم)؛ (الامتيازات) التي صيغت في ما بعد مانحة مزايا قنصلية للدبلوماسيين والتجار الفرنسيين. هذا الحلف الحقيقي المقام ضد إمبراطورية هابسبورج سوف يكون مفيدًا لتجار مارسيليا كلهم الذين استقبلوا في موانئ الشام كلها، وكذلك لحرفيي ليون الذين كانوا روادًا في الحضور في أسواق سورية. وهكذا (فالبنت البكر للكنيسة) لم تخش أن تتحالف مع أكبر إمبراطورية للإسلام. كانت مملكة فرنسا تبرر موقفها أمام القوى الأخرى المسيحية بإبرازها الضمانات المقدمة بوساطة (الامتيازات) للحجاج الأوروبيين للأراضي المقدسة، بوصفها صدى لتلك التي كفلها هارون الرشيد لشارلمان. أدى ضم مسيحيي الشرق إلى التعاملات الفرنسية - العثمانية عبر القرون إلى توسع تدريجي في مد الامتيازات الممنوحة للأجانب من الفرنسيين إلى هؤلاء الشركاء المحليين.

الصورة الرابعة والأخيرة تقودنا إلى حلب في عام 1680 حيث تم تعيين الفارس لوران دارفيو قنصلًا لفرنسا، وقد شغل هذه الوظيفة

خمسة أعوام؛ السفارات العابرة أصبحت بالفعل ممثليات دائمة، والفارس الأنيق الذي كان يباهي بأنه مستشار موليير في المشاهد التركية في مسرحية البرجوازي النبيل، قد تفاوض لمدد طويلة لحسابه الخاص في الشام قبل أن يشغل القنصلية الفرنسية في الجزائر. كانت حلب في ذاك الوقت أكبر مركز تجاري في الشرق الأوسط العربي، وكان العثمانيون يقبضون بيد من حديد على هذه المدينة الإستراتيجية من الناحية العسكرية والضريبية، وكان القنصل الفرنسي شاهدًا مميزًا للتوترات بين المسؤولين الأتراك والسكان المحليين. ((لم يكن الأتراك محبوبين البتة في هذه البلاد. ولا نبالغ إذا قلنا: إنهم يكرهونهم فهذا أقل ما يقال، بل ينظرون إليهم بوصفهم مغتصبين وطغاة يتمنون سقوطهم، ومن المؤكد أنه لو توحد الأمراء المسيحيون لطردهم سوف ينضم إليهم العرب ويسهمون بقوة في هذا العمل الجيد))[1].

802 و1270 و1536 و1680 هذه الصور الأربع تبين لنا صورة فرنسا وهي منخرطة بنشاط عبر القرون في العالم العربي. تبدو الحملات الصليبية فيها مرحلة شاذة بين قوسين داخل تاريخ موسوم بالإرادة الفرنسية في ترقية وضعها في الشام، ليس بالسلاح ولكن بالتعامل مع بغداد والقسطنطينية. لويس التاسع ومن سبقوه يطالبون بحماية مسيحيي الشرق. من أجل التنوير جاءت قبضة من المعتادين على العالم العربي، يطلق عليهم (مستشرقون)، يقترحون المراهنة ليس على العلاقات الطيبة مع الباب العالي، ولكن على حقد السكان العرب تجاه سادتهم الأتراك.

في عام 1798 مراهنة إستراتيجية بالغة الجرأة كانت أصل الحملة على مصر، فقد حل نابليون بونابرت في طولون في شهر أيار/ مايو على رأس

(1) Laurent D'ARVIEUX, Mémoires du Chevalier d'Arvieux, Delespine, Paris, 1735, tomeII, p.291-292.

أسطول مكون من 300 سفينة تحمل 30000 جندي و177 عالمًا في

التخصصات كلها، لأن البعد العلمي للمغامرة كان على قدر الطموح العالمي للثورة الفرنسية. فلقد أقنع الجنرال الفرنسي حكومة الديركتوار* أن تكلفه «بحملة على الشام تهدد التجارة مع الهند»[2]، نظرًا إلى غياب القدرة على غزو إنكلترا كان الهدف هو ضربها في الطريق إلى بومباي. وما إن وصل بالكاد إلى الإسكندرية في تموز/ يوليو 1798 حاول بونابرت أن يحيّد السكان العرب بأن يذكر أن أعداءه هم المماليك؛ هؤلاء العبيد القدامى الذين اعتنقوا الإسلام، وتم تحريرهم ليضمنوا السيادة العثمانية على مصر. تصريح القائد الفرنسي يفتتح بالإشارة المعتادة إلى الله قبل أن يؤكد: «يا أيها المصريون: قد قيل لكم أنني ما زلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولو للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن المقدس»[3].

سرعان ما أصبح بونابرت سيدًا على القاهرة، وسيزيد لاحقًا من التصريحات المجاملة للإسلام، وهو ما لم يمنع الغضب الشعبي من التصاعد، حتى وصل إلى انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر 1798 التي تم سحقها بإسالة الدماء. ولأنه اعتقد أن مصر صارت هادئة تقريبًا، توجه الجنرال الطموح إلى فلسطين، حيث دخل في شباط/ فبراير 1799 إلى غزة ثم يافا، وهنا أيضًا يُكثر الجيش الجمهوري من المجازر.

* نظام حكم في فرنسا بعد الثورة من 1795 إلى 1799، وهو مجلس يتكون من خمسة مديرين يتغير واحد منهم كل عام، ويتخصص بأمور الجيش والعلاقات الدبلوماسية والخدمة المهمة. (مترجم).

(2) Cité in Patrice GUENIFFEY, Bonaparte, Gallimard, Paris, 2013, p. 346

(3) موقع MBC على شبكة الإنترنت: أول رسائل نابليون إلى الشعب المصري، تاريخ النشر 1 كانون الأول/ يناير 2013.

وعلى الرغم من ذلك اضطر بونابرت إلى التخلي عن الاستيلاء على عكا بعد حصارها مدة شهرين، وهذه نهاية حلم الجنرال الذي كان يتصور نفسه متقدمًا باتجاه دمشق وحلب، وربما مستوليًا على الإمبراطورية العثمانية من الشرق. لم تحدث الثورة الكبرى (للشعب) الشرقي ضد استبداد إسطنبول. صدقت في المقابل دوائر مسيحانية من يهود أوروبا الوسطى -بسبب نشر رسالة مزيفة من بونابرت في براج- أسطورة الالتزام الفرنسي بتحبيذ توطين اليهود في فلسطين.

يعود الغازي المحبط إلى القاهرة مصحوبًا بقوات تكميلية، ولا سيما فلسطينية جُنِّدت في الجليل، ويهزم الجيش التركي الذي نزل في ميناء أبو قير. وفي آب/ أغسطس شارك أيضًا في احتفال بتمجيد النبي محمد، وكان هذا آخر ظهور عامّ له قبل عودته إلى فرنسا. في 18 بروميير (9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1799) قلب بونابرت حكومة الديركتوار واستولى على السلطة في باريس.

ومصر أصبحت يحكمها الجنرال كليبر الذي انتصر على الجيش العثماني في هوليوبوليس وقمع انتفاضة القاهرة الثانية، ولكن كليبر اغتيل في حزيران/ يونيو 1800 بوساطة شاب عربي من حلب تصرف من تلقاء نفسه وسيحكم عليه بالإعدام على الخازوق. وقد خلفه الجنرال مينو الذي اعتنق الإسلام وسُمي عبد الله وتزوج من مصرية من عائلة كبيرة. كتب المجلس العربي الذي كونه مينو في مصر إلى بونابرت: ((الفرنسيون والمصريون صاروا يشكلون شعبًا واحدًا تجمعه صداقة وثيقة ومخلصة))[4].

أُطيحت مشروعات التوطين الدائمة في مصر بسبب هجوم إنكليزي - عثماني أجبر مينو على الاستسلام في الإسكندرية عام

(4) Ibid, p. 414.

1801. انتهت السنوات الثلاث للحملة على مصر بترحيل القوات الفرنسية كلها.

هذا الحدث ذو الوجهين الذي هو في آن معًا عدوان استعماري ومشروع ثقافي كأن له تأثيرًا عميقًا ومستمرًا. يرى المؤرخون العرب بالفعل أن هذه الحملة تحدد بداية النهضة، وسوف يصر العرب من هذه اللحظة على مواجهة التحدي المزدوج للسيادة العثمانية والتوسع الغربي. هذه الحركة الواسعة للتحرر الجماعي والفردي بدأت بعد الهزة الفرنسية في 1798-1801.

انطلقت دينامية النهضة العربية طوال القرن التاسع عشر، ولكنها انكسرت بوساطة المساومات الكبرى التي أعقبت الحرب العالمية الأولى. إن الشعوب العربية التي لم تخرج من الوصاية العثمانية إلا لتقع تحت نير الاستعمار سوف تستمر عقودًا عدة قبل أن تحصل على استقلالها الوطني. على الرغم من ذلك لم يكن الاستقلال كاملًا بسبب اختطافه بوساطة نظم حكم مستبدة، التي في أزمتها الحالية ذات الطبيعة الثورية أمكن وصفها بأنها «ربيع عربي». بعد قرنين من الزمان بالنسبة للشعوب العربية لم تستنفد النهضة وعدها بالتحرر.

1

العرب والنهضة

(1913-1801)

قرن تاسع عشر طويل

الإشارة إلى وجود شعوب عربية في عام 1800 هو وقوع في الخطأ التقليدي عن (تسكين المستقبل في الماضي) المعروف عند المؤرخين، ويتمثل في أن نسقط على الماضي مقولات معاصرة؛ فبوساطة النهضة سيبدأ العرب تدريجيًا الوعي بأنفسهم. هذه النهضة العربية تعادل التنوير الأوروبي ولها أقطاب ثلاثة أساسية: مصر من خلال قوة دولة تحديثية، وتونس من خلال شرعية بناء دستوري، والشام من خلال فوران ثقافي.

مصطلح (العرب) يشير في ذلك الوقت غالبًا إلى البدو الرحل الذين تعد غزواتهم كابوسًا بالنسبة للسكان الريفيين والإدارة العثمانية. نتحدث عن (المور) في شمال أفريقيا وعن (ولاد البلد) في مصر لتمييز السكان المحليين ذوي الأغلبية المسلمة من النخبة التركية. هؤلاء السكان هم أنفسهم متنوعون على المستوى العرقي: (البربر في شمال أفريقيا، الأكراد والتركمان والأرمن في الشام، السود من نسل العبيد أسفل الصحراء في الإقليم كله).

استقرت طوائف يهودية في المغرب وفي الشرق، ولكن لا يوجد عمليًا مسيحيون أصليون في شمال أفريقيا. كنيستا الشرق الكبيرتان هما أقباط مصر واليونان الأرثوذكس الذين يطلق عليهم العرب

الروم. في ما بين 1622 و1742 شهدت كل من الكنيستين الأرثوذوكسيتين في الشرق انشقاقًا كاثوليكيًا، واعترف البطاركة بسلطة البابا على النموذج الموجود من قبل الكنيسة المارونية في لبنان. بالنسبة لليونان الكاثوليك الذين يسمون (ملكيون) أيضًا، حمل هذا الانشقاق تأكيدًا للهوية العربية في مواجهة الهيراركية الدينية اليونانية لكنيستهم القديمة.

كان عدد السكان الذين يشكلون العالم العربي الحالي في بداية القرن التاسع عشر نحو 15 مليون نسمة (كان يلزم انتظار إحصاءات السكان الاستعمارية حتى يكون لدينا رؤية أكثر دقة للديموغرافيا في شمال أفريقيا، حيث إن السجلات العثمانية لم تكن تحصي سوى البيوتات التي تدفع الضرائب). مقارنة بعدد سكان فرنسا في المدة نفسها حيث بلغ ثلاثين مليونًا. مصر هي أكثر البلاد العربية سكانًا؛ حيث بلغ عددهم بلا شك 4 ملايين، كما إن القاهرة هي المدينة الوحيدة التي تضم 250000 نسمة لتناهز مدينة إسطنبول التي تضم أكثر من 300000 ساكن.

أما عدد سكان دمشق وحلب وتونس فهو 100000 نسمة لكلٍ منها، ومن 65000 إلى 90000 في بغداد أو الموصل، في المقابلً كانت تصل أكثر المدن الأربع كثافة سكانية في فلسطين العثمانية وهم عكا وغزة والقدس ونابلس لكل منها بالكاد إلى 100000. معدل العمران في الشام الذي يصل من 20 إلى 25 بالمئة يبقى مع ذلك مكافئًا للمعدلات الأوروبية في تلك المدة، ولكنه أقل من ذلك بصورة ملحوظة في تونس (15 بالمئة)، وفي الجزائر والمغرب (10 بالمئة). الملكية الشكلية للأراضي الزراعية في الريف أقل أهمية من الانتفاع الفعلي المقر به من قبل العرف أو أقل من الوصول إلى ماء الري.

ظل العثمانيين

كان العالم العربي عشية الحملة على مصر مندمجًا في أغلبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الإمبراطورية العثمانية. سلطان القسطنطينية معترف به بوصفه السيد الشرعي، ويتم الدعاء باسمه في صلاة الجمعة، إضافة إلى جمع الضرائب، وحشد الجيوش. ومنذ اتفاق 1774 مع روسيا كان السلطان يشدد تدريجيًا على لقب الخليفة حتى يستمر في ممارسة سلطة روحية، ولا سيما على تتار القرم، في الوقت الذي فقد فيه سلطته الأرضية على سكانها المسلمين.

درجة تحكم الباب العالي متنوعة: تلقي ثقلها كله في حلب ودمشق التي تحرس الطريق إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وكذلك على الموصل وبغداد والبصرة التي تمثل الحدود مع الإمبراطورية الفارسية؛ مماليك مصر الممثلون الرسميون لسلطة السلطان حاولوا مرارًا اختطاف السلطة المحلية لصالحهم؛ وأخيرًا الإمارات المسماة (بالبربرية)، ويعتمد اقتصادها على التجارة في البحر المتوسط دعمت استقلالًا فعليًا مقابل دفع خراج منتظم لإسطنبول.

في عام 1705 أسس حسين بن علي في تونس سلالة من البايات، وهو نموذج اتبعه باشوات عائلة قره مانللي في طرابلس في ليبيا بعد ذلك بست سنوات. ويسود في الجزائر منذ 1671 نظام خاص يتم فيه انتخاب الداي بوساطة الأوجاق، وهم قادة لآلاف المرتزقة المستتركين الذين يحكمون البلد باسم السلطان. نصف الأربع والعشرين دايًا الذين تتابعوا خلال قرن ونصف فرضتهم انتفاضات هذه الميلشيات في سياق من العنف وغياب الاستقرار.

لم يفلت حقًا من السيطرة العثمانية سوى ميناء وهران الواقع تحت الاحتلال الإسباني حتى عام 1792، ومملكة المغرب المحاطة

بسلاسل جبال الريف والأطلس التي تتجه نحو المحيط الأطلنطي للمحافظة على استقلالها. دعم الحكام العلويون من نسل النبي محمد أسرتهم المالكة ابتداء من عام 1666، وباسمهم كان يدعى في الصلاة في أنحاء البلاد كلها.

وفي الطرف الآخر من العالم العربي قاومت مملكتان الباب العالي السني بسبب سماتهما الطائفية؛ فالأسر الحاكمة فيها ترتبط بالفعل بفروع منشقة من الشيعة: الزيدية والإباضية. توصل الأئمة الزيدية من مرتفعات شمالي اليمن في عام 1636 إلى طرد القوات العثمانية الذين لم يترددوا في إعلان الجهاد ضدهم. في عمان فرضت أسرة آل بوسعيد نفسها في عام 1749 بعد حرب الاستقلال ضد البرتغاليين ثم الفرس بعد ذلك.

وخلافًا للعائلات المالكة المغربية واليمنية والعمانية، وكل منها تقوم على شرعية دينية لملوكها، شهد قلب شبه الجزيرة العربية في عام 1744 شكلًا جديدًا من الاحتجاج ضد النظام العثماني. عُقِد حلف بين الداعية محمد عبد عبد الوهاب وعائلة آل سعود التي وجدت في غياب التسامح العنيف للمذهب (الوهابي) (على اسم المؤسس) تبريرًا للحملات ضد القبائل المجاورة، ولم يكن لأحد في ذلك الوقت أن يتخيل المصير غير الاعتيادي الذي سوف يشهده هذا المعقل الوهابي المحصور والجاف في تطور الإسلام المعاصر.

الممالك العربية الأربع التي تتأسس (خارج مجال) السيادة العثمانية هي في آن معًا محاصرة ومحيطية. سلطة السلطان - الخليفة في إسطنبول تعلن نفسها في المقابل ببهرجة في أثناء التنظيم السنوي لقوافل الحج إلى مكة انطلاقًا من دمشق من جانب ومن القاهرة من جانب آخر، (وقد حرص بونابرت على المحافظة على هذا الطقس في محاولة غير مجدية لترسيخ الاحتلال الفرنسي لمصر). بايات تونس ودايات الجزائر كانوا

يرسلون كل عام حملة جوالة تسمى (محلة) لجمع الضريبة باسم السلطان العثماني في أعماق البلد في لفتة لتأكيد ولاء سلطتهم المحلية للباب العالي.

مصر غازية والجزائر مغزوة

دمرت صورة الحملة على مصر كل أمل في عودة السلطة العثمانية على وادي النيل. محمد علي جنرال ألباني أُرسل إلى القاهرة بوساطة الباب العالي، قضى على خصومه خلال بضع سنوات من الاضطرابات؛ أصبح حاكمًا على مصر في عام 1805، وسحق بوساطة ابنه إبراهيم في 1818 المعقل الوهابي الذي استطاع آل سعود تكوينه حتى مكة والمدينة، ولكن من أجل ترسيخ سلطة أسرته تحت لقب الخديوي (الذي يقارب أحيانًا نائب الملك).

قاد محمد علي بمسار إجباري برنامجًا للتحديث السلطوي الذي يمر عبر إصلاح الجيش، وإعادة هيكلة النظام الضريبي، وإطلاق أعمال البنية التحتية الكبيرة، وتأسيس احتكار الدولة. وكان محاطًا بكثير من المستشارين الفرنسيين، وضباط اعتنقوا الإسلام أو سان سيمونيين مستقبليين، وحقق نجاحات كبيرة في استغلال القطن وبدرجة أقل قصب السكر؛ أما إنجازه في الصناعة فكان أقل بروزًا.

هذا الخديوي الذي سوف يحكم مصر أكثر من أربعين عامًا كان يقدم نفسه طوعًا أمام الأوروبيين بوصفه من سيواصل عمل (الحضارة) الذي بدأه بونابرت. أرسل في عام 1826 إلى فرنسا بعثة من أربعة وأربعين مبعوث من بلاطه، ومعهم إمام من الأزهر («سوربون الإسلام» بحسب تعبير بونابرت). هذا الإمام هو رفاعة الطهطاوي الذي لم يكن حارسًا غيورًا على النظام الأخلاقي، انغمس بشغف في (الحضارة) الفرنسية طوال خمس سنوات.

والكتاب الذي يحكى ذلك هو (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) نُشر بالعربية في عام 1834 وبعدها بخمس سنوات باللغة التركية، يبدأ ((بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك في بلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع، ولعمر الله أنني، مدة إقامتي بهذه البلاد، في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه))[5].

يدعو الإمام الأزهري العرب قبل المسلمين، كما يبين الاستشهاد الموجود في مفتتح هذا الكتاب، ويؤكد على أن استيلاء فرنسا على الجزائر بواسطة شارل العاشر في عام 1810، لم يمنع بعد ذلك بقليل من الانقلاب لصالح لويس فيليب، وكان شاهدًا مباشرًا على ثورة تموز/ يوليو. وكان الطهطاوي أكثر دهشة أمام محاكمة رئيس الوزراء السابق بولينياك الذي عوقب فقط بالسجن المؤبد على الرغم من النداءات الشعبية بإعدامه. مؤلف اليوميات يرى في ذلك دليلًا على حسن الأخلاق التي تنظم الدولة الفرنسية[6].

صحيح أن فرنسا في عهد لويس فيليب لا تخفي مساندتها لمحمد علي حتى عندما انطلق ابنه إبراهيم لغزو فلسطين عام 1831، ونجح حيث أخفق بونابرت: سقطت عكا لتفتح الطريق إلى سوريا، وبعد ذلك ببضع سنوات كانت القوات المصرية تهدد الأناضول ذاتها. وكان هذا مجاوزًا الحد بالنسبة لإنكلترا التي دخلت إلى جانب الإمبراطورية العثمانية وأجبرت إبراهيم على الخروج من الشام في عام 1840.

فرنسا هذه التي تسير على خطا بونابرت تتحالف مع القاهرة ضد إسطنبول كانت لها في المقابل أهداف أقل وضوحًا في الجزائر، لقد

(5) رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريس، (القاهرة: كلمات، 2011)، ص 11.

(6) رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريس.

كانت تكتفي لزمن طويل باحتلال المنطقة الساحلية (ومنها وهران التي لم تدم عثمانية إلا مدة ثلاثة عقود)، تاركة الأراضي الداخلية للتحالف المنعقد حول عبد القادر، وهو أمير شاب يكتسي ملامح الزعامة. رفع عبد القادر راية الجهاد ضد (الكفار) بدلًا من الباب العالي الذي ترك المسلمين يواجهون الغزو بعد سقوط قسنطينة عام 1837. وعلى الرغم من أن الأقوال والشعارات كانت إسلامية فإن الأمر كان يتعلق بوضوح بمقاومة وطنية.

وابتداء من عام 1839 أطلقت فرنسا (حربًا شاملة) ضد الانتفاضة الجزائرية، واستخدمت لسحقها نحو 100000 جندي، وهو عدد مكافئ لعدد السكان الفرنسيين المستوطنين في البلد. تصاعد الرعب جر إلى غماره المعسكرات كلها: القبائل المتحالفة مع فرنسا كانت تقدم عشرات من الآذان المقطوعة لأعدائهم، بينما كان عبد القادر يصفى جسديًا أي شخص يتهم بأنه تحالف مع (الكافر)؛ مئات بل آلاف من المدنيين ماتوا اختناقًا بوساطة الفرنسيين في المغارات التي كانوا يلجؤون إليها.

استسلم عبد القادر المهزوم للمحتل في عام 1847. لم تتأخر الجمهورية في تأسيس ثلاث محافظات في (الجزائر الفرنسية). ساند المستوطنون الفرنسيون بحماس الجمهورية في مواجهة لويس بونابرت الذي سيسمى في ما بعد نابليون الثالث، وقد احتفظ بضغينة عنيدة زادت من إعجابه بعبد القادر. في عام 1852 حرر الأمير المسجون في قصر إمبواز، وتركه يرحل إلى إسطنبول، ثم رحل إلى دمشق، وهناك أنقذ عبد القادر من السحل في عام 1860 آلاف المسيحيين وكذلك قنصل فرنسا.

بعد ذلك بقليل زار نابليون الثالث الجزائر وهناك صرح: "واجبنا الأول هو أن نهتم بسعادة ثلاثة ملايين من العرب الذين وضعهم منطق

السلاح تحت سيادتنا»[7]. وقد داعب الإمبراطور فكرة «المملكة العربية» التي ستمتد تحت الحماية الفرنسية من الجزائر إلى بغداد، وسيكلف بها طوعًا عبد القادر. ولكن الأمير المنفي الذي أصبح من الآن فصاعدًا مشغولًا بمسعاه الصوفي لم يستجب لذلك.

بعد إقامة ثانية في الجزائر في عام 1865 أصدر نابليون الثالث قانونًا جاعلًا من الجزائري المسلم فرنسيًا تدار شؤونه بحسب الشريعة. على الرغم من ذلك ظل الوصول إلى المواطنة بالنسبة للمسلمين مقترنًا بالتخلي عن الأحوال الشخصية، ولا سيما في موضوع تعدد الزوجات وموضوع الميراث. هذه الإجراءات المصحوبة بضمانات مقدمة إلى السكان الأصليين، استثارت غضب المستوطنين الذين احتفلوا عام 1870 بسقوط الإمبراطورية الثانية وسقوط (المملكة العربية).

يومان قبل اندلاع كوميونة باريس في آذار/ مارس 1871، هزت انتفاضة عربية واسعة الجزائر. خلال شهور عدة تحكّم 100000 متمرد في ثلث البلد تقريبًا. كان القمع قاسيًا، ومهد الأرض لاستعمار سريع ومنهجي، وإبعاد السكان العرب المحرومين من أرضهم والمهمشين داخل بلدهم. هذا النزع المكثف للملكية الذي تم باسم الجمهورية أسهم بصورة كبيرة في عزل الجزائر عن دينامية النهضة العربية.

أنوار تونس والعاتم* الغربي tuo - kcalb

حمودة باشا، باي تونس من عام 1782 إلى عام 1814 كان يمكنه أن يستند إلى دعم جامع الزيتونة المعادل المحلي للأزهر.

ومن جهة أخرى كان قد كلف الزيتونة بالرد على التحدي الذي

(7) Cité in Ignace DALLE, La Ve République et le monde arabe, Fayard, Paris, 2014, p.27.

* العاتم ستار من قماش ثقيل لحجب الضوء القادم من الخارج (المترجم)

أطلقه الإمام سعود في عام 1810، حينما كان مزهوًا بالاستيلاء على مكة والمدينة، حث الزعيم الوهابي برسالة مكتوبة حمودة باشا على الانضواء تحت مذهبه. وبينما رد الحاكم التونسي بالقلم، فإن قرينه المصري قد رد بالسيف، مدمرًا في 1818، كما رأينا، أول دولة (سعودية).

أحمد الأول، باي تونس من 1837 إلى 1855، ولد من أم من سردينيا، كان يتكلم الإيطالية أفضل من التركية، وكان يتراسل بالعربية مع الباب العالي. مشروعه الكبير كان هو الأكاديمية العسكرية في باردو التي افتتحت في بداية عهده بمعلمين فرنسيين وإيطاليين. وقد استقبل لويس فيليب الحاكم التونسي بحفاوة في عام 1846، وهي السنة التي ألغت فيها تونس الرق قبل الجمهورية الفرنسية بعامين.

وعلى الرغم من ذلك فإن إرث أحمد الأول أقل من تابعيه، محمد باي الذي بقي في الحكم حتى 1859، وصادق باي الذي حكم طويلًا مدة ثلاثة وعشرين عامًا. (عهد الأمان) المندرج (تحت الشعار المزدوج الإيمان والعقل) شدد بشكل غير مسبوق على (المصلحة) أي (الخدمة العامة).

الدستور الذي تم تبنيه في عام 1861 هو الأول في العالم العربي، ويسبق بست عشرة سنة الدستور العثماني (الذي سرعان ما سيُجمَّد العمل به).

هذا النص المؤسس يكرس سلطة سياسية متميزة عن الدين، وهو حتى لا ينص على أن رئيس الدولة ينبغي أن يكون مسلمًا، والإسلام لم يُذكر إلا تأكيدًا على موافقة الدستور لوصايا الإسلام. وبينما كانت الإمبراطورية العثمانية ما زالت تعيش تحت نظام الامتيازات ذات التفسير المتسع، تنص المادة الأخيرة في الدستور التونسي على شمول التشريعات المحلية لكل من السكان المحليين والأجانب.

ومع ذلك كان احتواء هذا النص على نظام التجنيد هو الذي أطلق عام 1864 عصيانًا كبيرًا وتعليقًا للدستور بتأثير أزمة مالية. عملية التحديث انطلقت مرة ثانية بعد عشر سنوات تحت حكم خير الدين باشا (1873–1877): إصلاح الجمارك والعدالة والأوقاف (الحبوس) وافتتاح كلية صديقي (تكريمًا لاسم الحاكم)، وهي مؤسسة علمانية مخصصة لإعداد نخبة المستقبل.

فرنسا وإنكلترا اللتان يدور التنافس بينهما في الشام منذ حملة بونابرت يتواجهان بسبب قناة السويس التي افتتحت في عام 1869 تحت سلطة الفرنسي فردينان ديليسيبس، ولكنها انتقلت تحت إشراف شركة أغلبيتها بريطانية بعد ذلك بست سنوات. القوتان الاستعماريتان في صراعهما المحتدم لا تتركان الدينامية التحديثية التي يقوم بها حكام تونس ومصر تتطور. في عام 1881 فرضت فرنسا حمايتها على تونس، وفي السنة التالية احتلت المملكة المتحدة مصر عسكريًا.

قبِل بايات تونس وخديويو مصر بالسيادة الغربية، حتى وإن وضع ذلك نهاية لتشجيع التنوير العربي الذي تم استلهامه بحرية من أوروبا من دون أن يكون تبعية لها. في المقابل تمت مواجهة التدخل الإمبريالي بمقاومة وطنية اتخذت شكل انتفاضة شعبية في تونس وانتفاضة عسكرية في مصر، ولكن بارود الشرف سوف يُسحق سريعًا بوساطة قوات غازية تتمتع بالتفوق الهائل في العدد وفي السلاح.

إسلاميون وقوميون

إذا كانت مصر قد (هزتها) حملة بونابرت في قلب مشروع تتبناه الدولة للتحديث من أعلى، وإذا كانت تونس تدهش بسبب طموح

مسارها الدستوري، فإن القطب الثالث والأخير للنهضة وهو الشام كان آنذاك في قمة الفوران الثقافي. ولكن من الضروري أن نلاحظ أن الجزائر المقهورة تحت نير الاستعمار والمغرب التي تحصن نفسها «بنزعة تقليدية قاهرة»[8] للمقاومة على نحو أفضل ضد التأثير الأجنبي لا تشترك إلا من بعيد في هذه الحركة الجماعية.

المطابع العربية التي دخلت منذ القرن الثامن عشر إلى حلب لم تكن تخص لمدة طويلة سوى مسيحيي الشرق، لنشر محدود وعدد متواضع من الكتب المختارة، في المدة التي بدأت فيها الصحف اليومية تظهر في أوروبا. ولقد حرص بونابرت على أن يصطحب معه إلى مصر مطبعة بحروف عربية، بل حمل معه واحدة في أثناء الحملة على فلسطين لغرض الدعاية. وأسس محمد علي في عام 1822 مطبعة بولاق بالقاهرة. تضاعفت المطابع العربية في أثناء القرن التاسع عشر مع نشر 10000 كتاب على الأقل؛ أي عناوين أكثر من ألف عام السابقة في التاريخ العربي.

الانتقال العربي إلى الطباعة أطلق مسارًا لعلمنة لغة كانت حتى تلك اللحظة حبيسة الإطار العقائدي للمسجد أو التعليم الإسلامي، حتى وإن بقيت هذه النصوص المطبوعة في الغالب ذات سمة دينية، ولكن نشرها غير المسبوق في مجال لم يكن كذلك غيّر الحال. هي لغة جديدة تنبثق أكثر سيولة ومتاحة لدوائر أكثر اتساعًا، وبذلك دخلت هذه الدوائر في علاقة بطريقة جديدة. التوزيع المتوازي للصحف حتى وإن ظلت أعدادها متواضعة أسهم في هذا المرور المتدفق للأفكار.

الطلاب الذين لم يكن أمامهم حتى ذاك الوقت سوى الجامعات الإسلامية في القاهرة ودمشق وتونس وفاس كانوا يتجهون أكثر

---

(8) Daniel RIVET, Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation, Hachette, Paris, 2002, p.174.

فأكثر إلى أوروبا مع افتتان بحر متوسطي بباريس. النصف الثاني من القرن التاسع عشر يشهد أيضًا مع نهاية الأوبئة الكبرى تزايد السكان العرب، وتدفقًا كبيرًا في الهجرة من الشام؛ إنها هجرة فائض، وتعبير عن حيوية، بخلاف الفرار في المدة نفسها ليهود أوروبا الشرقية أمام الإبادة.

مسيحيو الشرق الذين كان تزايدهم الديموغرافي أكبر من تزايد جيرانهم المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر، سادوا هذه الهجرة إلى أوروبا وأميركا (ومصطلح turcos في أميركا اللاتينية وsyrians في الولايات المتحدة) يشير إلى هذه الهجرة السورية – اللبنانية – الفلسطينية. في المقابل كان الشيعة أكثر عددًا في التوجه إلى أفريقيا أسفل الصحراء عبر مارسيليا، وكل استقرار عائلي يستدعي غيره.

من هذه اللحظة انبثق مجال عام من نوع جديد، حيث يتجادل المثقفون العرب من بلد إلى آخر مع أصداء شتات منتبه وشغوف. وهكذا فإن فارس الشدياق – الذي هرب من لبنان عام 1925 التي يعيش فيها أخوه الذي اعتنق مثله البروتستانتية وعذبته الكنيسة المارونية – وصل إلى لندن عام 1848 وانشغل بترجمة عربية للكتاب المقدس، ثم أسبغ عليه أحمد الأول باي تونس حمايته، واعتنق الكاتب الإسلام وحمل اسم حاميه. وفي بيروت أطلق الماروني بطرس البستانى عام 1860 صحيفة شعارها (حب الوطن من الإيمان). وهذا الاحتفاء بالوطن موجود أيضًا لدى اليوناني الأرثوذكسي جورجي زيدان، المطرود من الجامعة البروتستناتية في بيروت لأنه دافع عن الداروينية، وأقام في القاهرة عام 1882. وفي الإسكندرية أطلق الشقيقان اليونان الكاثوليك سليم وبشارة تقلا أول صحيفة عربية للأخبار وهي صحيفة (الأهرام)، وما زالت تصدر إلى اليوم.

إسهام المسيحيين الشرقيين من كل مذهب كان حينذاك أساسيًا في إثراء الخطاب القومي المطعم بمرجعيات تاريخية صلبة، ووصل إلى حد تبجيل النبي محمد كبطل عربي أكثر منه رسولًا للوحي. ولكن المثقفين المسلمين كان لهم مكانهم في هذا الحراك؛ من جميل صدقي الزهاوي ابن مفتي العراق ومدير المطبعة الوطنية في بغداد، إلى عبد الرحمن الكواكبي مؤسس أول مجلة أسبوعية في حلب عام 1877 التي أُوقفت بعد ستة عشر عددًا.

أثار واحد من اعتقالات الكواكبي في حلب عام 1899 تظاهرة احتجاج نسائية، وهي بلا شك الأولى من نوعها في العالم العربي الإسلامي. الشيخ المتمرد يرى أن (الانحطاط الشرقي) يرجع إلى الاستبداد، وعلاجه هو الحرية، وأفضل صورة لها هي الديمقراطية الدستورية[9]. كان انخراطه لصالح فصل ما هو سياسي عما هو ديني حاسمًا «دعونا نحل حياتنا الدنيا بتحييد الأديان التي تقوم بدورها في العالم الآخر». دعونا نجتمع حول هذه الكلمات «تحيا الأمة، يحيا الوطن ونحيا أحرارًا وذوي كرامة»[10].

ومما يدعو إلى الإعجاب بالكواكبي أنه يجسد نوعًا من (التآلف) بين من نسميهم اليوم (القوميون) و(الإسلاميون)، وهما مصطلحان لم يستخدما إلا نادرًا في القرن التاسع عشر، ما يعني أن هذه الثنائية المتصلبة لم يكن لها معنى في ذلك الوقت. نفي الكواكبي في عام 1900 إلى القاهرة بسبب القهر العثماني، ونشر فيها كتابه (أم القرى)، دفاعًا عن خلافة عربية، وهي موضوع أساسي في الاحتجاج (الإسلامي)

---

(9) Cité in Maher AL-CHARIF et Salam KAWAKIBI (dir.), Le Courant réformiste musulman et sa réception dans les sociétés arabes, Institut Français du Proche-Orient (IFPO), Damas, 2003, p.16.

(10) Ibid.

في العالم العربي ضد الباب العالي. الكواكبي هو أيضًا مؤلف بيان (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) المستلهم من الأدب الليبرالي الإيطالي. هذا النضال (القومي) ضد التعسف العثماني يقوم به الكواكبي مع نزعة نضالية (إسلامية) لصالح عودة الخلافة في العالم العربي، بعد قرون من اغتصابها من قِبل السلاطين الأتراك.

لماذا يعمل هذا التأليف عمله بصورة طبيعية؟ لأن مثقفي النهضة كان عليهم آنذاك أن يواجهوا تحدي السيطرة العثمانية الكبيرة من جانب، والتوسع الغربي من جانب آخر. يستخدم القوميون ضد أوروبا مفهوم الأمة التي تتحدث لغة واحدة على أرض واحدة مع تطبيقه على العرب. والإسلاميون يعتبرون أن العودة إلى المصادر الإسلامية ضرورية لإزالة الانحطاط الذي أدت إليه الخلافة العثمانية. ولهذا كانوا يطلقون على أنفسهم (إصلاحي) و(سلفي) بالإحالة إلى الجيلين الأولين من السلف في الإسلام.

محمد عبده الذي تعلم في الأزهر مثل الطهطاوي هو الوجه الأكبر في هذه النزعة الإسلامية، نُفي من مصر بعد الاحتلال البريطاني في عام 1882، أقام في باريس ثم في بيروت، وبلغت شهرته حد أن أصبح مفتيًا أكبر لمصر في عام 1899. تلميذه رشيد رضا الذي ولد في ميناء طرابلس بلبنان عيّن نفسه حاملًا لتراثه في المجلة القاهرية (المنار) التي شارك فيها الكواكبي. تلميذ آخر لعبده هو لطفي السيد عمق التزامه بالقومية المصرية، وأسس في عام 1907 أول حزب سياسي في البلد، حزب (الأمة)، وهو مصطلح مختار لتعدد دلالاته؛ فهو قد يشير إلى الأمة العربية أو إلى جماعة المسلمين. ومن جانبه اختار رضا في عام 1912 الانحياز إلى اللامركزية التي تدعو إلى نقل جوهري للاختصاصات من الإمبراطورية العثمانية إلى الولايات العربية.

استُقبل وصول أنصار تركيا الفتاة إلى السلطة في إسطنبول في عام 1908 في البدء بترحيب من المناضلين العرب، ولا سيما أنه جاء مصحوبًا بحرية كبرى للصحافة (ومن هنا جاء إصدار ست عشرة صحيفة عربية في بغداد واثنتا عشرة في بيروت وست في القدس). ولكن النزعة القومية التركية وضعت في الصدارة قادة جدد. دخل الباشوات الثلاثة (جمال وأنور وطلعت) في صراع مع الحساسية العربية، حتى بدوا سلبيين، بل متعاطفين مع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. كانت الحركة الصهيونية التي أسسها تيودور هرتزل عام 1897 في لحظة تسعى إلى الاستيطان في أوغندا. وقد رفض هذا الاختيار بعد موت هرتزل عام 1904، من هنا جاء تزايد الهجرة إلى فلسطين التي جعلت في سنوات عشر اليهود يشكلون عُشر السكان في هذه الولاية العثمانية.

أطلق الشقيقان المسيحيان عيسى في يافا صحيفة (فلسطين) لإدانة التهديد الصهيوني والتواطؤ العثماني. وكُوِّنت منظمات سرية على الطريقة الإيطالية، مثل (الفتاة) في عام 1911 و(العهد) في عام 1913. وهذه المجموعة كونت حول ضباط عرب في الجيش العثماني، غاضبين لضياع ليبيا من قادة تركيا الفتاة لصالح إيطاليا. وعقد (المؤتمر العربي) في باريس في حزيران/ يونيو 1913 في مقر الجمعية الجغرافية في شارع سان جرمان بمبادرة من القوميين السوريين والمصريين. وقد اختتم هذا المؤتمر بشعار حماسي (عاش الوطن العربي). وقد أدين هذا المؤتمر في فلسطين لأنه لم يعالج المسألة الصهيونية تحت ضغط من (المستضيفين) الفرنسيين.

العالم العربي في المؤتمر الباريسي في عام 1913 مختلف جذريًا عن العالم العربي في أثناء الحملة على مصر في أعوام 1798–1801؛ فالجزائر موجودة تحت نير الاستعمار الفرنسي منذ 1830، ووقعت المغرب تحت الحمايتين الفرنسية والإسبانية، وسقطت ليبيا في عام

1911 تحت سيطرة إيطاليا التي قررت أن تحصل على نصيبها من الاستحواذ الاستعماري. أما في ما يخص بريطانيا العظمى فقد بدأت في عدن احتلالها الساحلين الجنوبي والشرقي لشبه الجزيرة العربية بانتظام من عمان حتى الكويت.

كانت النهضة العربية مشروعًا متعدد الأشكال من التحرر الفكري والتأكيد القومي والإحياء الإسلامي والتنمية الاقتصادية والترشيد الإداري والتقدم المؤسسي. لم يحدث من قبل أن اتصل هذا العدد الهائل من العرب بالعرب الآخرين في جنوب البحر المتوسط كما في الشتات من أجل صوغ رؤية تنويرية خاصة بهم، متجذرة في اللغة والثقافة والفخر القومي. مثل هذا الطموح الهائل لا يمكن أن يؤدي إلا لنتائج متضاربة وفي الغالب محبطة.

خريطة 1



لقد عانى عرب النهضة عجزهم عن مواجهة التوسع الاستعماري. والعائلتان الملكيتان في مصر وتونس، وقد أضعفتهم الأزمات المالية المتكررة والرفض الشعبي للتجنيد اضطروا إلى الخضوع للندن وباريس. التأليف العربي بين النزعة القومية والنزعة الإسلامية الذي استنفرته الاندفاعة الصهيونية المتأخرة كان يطمح آنئذ أن يحقق تطلعاته بفضل أول صراع عالمي. على الرغم من ذلك كانت هناك هزيمة تاريخية أخرى تنتظر العرب.

2

سلام الحروب كلها

(1925-1914)

الوعود الثلاثة للإمبراطورية البريطانية

عززت بريطانيا العظمى سيطرتها السياسية والعسكرية على مصر، حيث كانت فرنسا مقتصرة إلى حد ما على المجال الثقافي وفي منطقة قناة السويس. التحكم في الطرق إلى الهند بوساطة التاج البريطاني قد اكتمل بحضوره النشيط في بحر العرب وفي الخليج الفارسي. في فرنسا، القوة المهيمنة في شمال أفريقيا، قد بلورت كما حدث مع المملكة المتحدة (سياسة إسلامية) لا تهتم كثيرًا بخليفة إسطنبول.

في المقابل، زادت ألمانيا في عهد غوليوم الثاني من علامات التضامن مع الإمبراطورية العثمانية، مسهمة في جهدها من أجل الإصلاحات الإدارية. كما شاركت في مشروعاتها الكبرى في البنية التحتية، ولا سيما (محطة بغداد)، سكة حديد تربط مدينة قونية في الأناضول ببغداد التي ستصبح عاصمة العراق في المستقبل. في عام 1898 أقام الإمبراطور الألماني شهرًا كاملًا في تركيا وسوريا وفلسطين، وقدم تكريمًا لصلاح الدين بطل المسلمين ضد الصليبيين الذين انتزع منهم القدس عام 1187.

هذه العلاقات الخاصة بين برلين وإسطنبول أصبحت أكثر قوة مع وصول أنصار تركيا الفتاة إلى السلطة. بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 راهن مستشرقون ألمان مقربون من الهيئة العسكرية

في بلدهم على سلطة الخليفة العثماني، وطبقًا لهم فإن إعلان الجهاد سوف يؤدي إلى الاضطراب لدى السكان المسلمين، ويمكن بهذا أن يزعزع سلطة بريطانيا في الهند وفي مصر وفرنسا في شمال أفريقيا وروسيا في القوقاز.

هذا (الجهاد الذي صنع في ألمانيا) كما كان المؤرخون الإنكليزيون يصفونه بشيء من السخرية، أعلنه الخليفة محمد الخامس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914. انتشر الإعلان في الإمبراطورية كلها بوساطة أئمة المساجد في صلاة الجمعة. وقد تكفل عملاء برلين وڤيينا بنشره على أوسع نطاق بالعربية والتركية والفارسية والأوردية. نداء الخليفة للجهاد ضد الاستعمار لم يلق أي صدى جاد في العالم العربي، معبرًا عن قدر الفجوة التي حفرت بين العثمانيين الذين أصبح ينظر إليهم أكثر فأكثر على أنهم أتراك.

فرضت بريطانيا العظمى في كانون الأول/ ديسمبر 1914 حمايتها الرسمية على مصر. ووقعت معاهدة تحالف مع الكويت تحت حمايتها منذ 1899، بوصفها خطوة لغزو العراق انطلاقًا من الكويت. ومن جانبه أقام جمال باشا أحد الباشوات الثلاث من تركيا الفتاة في دمشق على رأس (الجيش الرابع) المخصص لطرد البريطانيين من مصر. كان هذا الجيش تركيًا بالأساس مع الإسهام الحاسم للمستشارين الألمان، ولم يستطع جمال باشا أن يجند سوى بضع مئات من العرب، أغلبهم من الدروز والليبيين.

في الواقع، لقد عاشت الأسطورة العثمانية، لكنها بدت غير قادرة على جمع الشعوب المسلمة على اختلافها تحت علم الخليفة؛ الحرب العالمية الأولى وضعت العرب في الشرق في مواجهة الأتراك، فكل من الجانبين اختار معسكرًا معارضًا للآخر في هذا الانفجار التاريخي الهائل.

الشريف حسين حاكم مكة

حسين بن علي ممثل لسلالة الهاشميين الذين ينتسبون إلى هاشم جد النبي محمد، وهذا النسب يسمح له بحمل لقب الشريف. الإمبراطورية العثمانية حامية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة منذ 1517 أعطت إدارتها للهاشميين، مع تدخلها بانتظام في شؤونهم العائلية. الشريف حسين الذي تم تهميشه لصالح فرع آخر من الهاشميين تم وضعه في إقامة جبرية في إسطنبول عام 1894، ولكن أنصار تركيا الفتاة القلقين بسبب تصاعد تمرد البدو، عينوه عام 1908 حاكمًا على ولاية الحجاز، مع سلطته على مكة والمدينة وميناء جدة.

التحدي الأكبر للشريف حسين كان رغبة عبد العزيز بن سعود في التوسع، الذي أحيا مشروع تأسيس دولة وهابية بنجاح أكبر من أسلافه عام 1818. وبالفعل استولى ابن سعود على مدينة الرياض في 1902 مدعمًا بذلك سيطرته على ولاية نجد، وهي قلب شبه الجزيرة العربية، ولما صمم الشريف حسين على أن يكبح هذا التهديد قام بحملة ضد الوهابيين في عام 1910. لم تكن النتائج مبهرة لأن الإمبراطورية العثمانية المنغرسة في حرب ليبيا لم تسانده بالقدر الكافي. ونظرًا إلى أن حاكم الحجاز لم يتمكن هزيمة الوهابيين، قرر في عام 1912 أن يمنع عنهم الدخول إلى مكة للقيام بالحج مدة خمس سنوات.

في خريف 1914 تفادى الشريف حسين مطالب جمال باشا في الإسهام في الجيش الرابع الذي يعد العدة لغزو مصر. في كانون الثاني/ يناير 1915 استولى الجيش العثماني، ذو الوحدات التي يقودها أحيانًا ضباط ألمانيون، على شبه جزيرة سيناء قبل أن يفشل في

عبور قناة السويس. في المدة نفسها قرر أحد مبعوثي (الفتاة)، إحدى الجمعيات السرية المنخرطة ضد الإمبراطورية العثمانية، أن يذهب إلى مكة ليحاول ضم الشريف حسين إلى القضية العربية. تردد الحاكم الهاشمي في الانضمام، لكنه أرسل ابنه فيصل إلى القوميين العرب في دمشق تحت غطاء بعثة للتشاور في إسطنبول.

فيصل بن حسين الذي لم يصبح بعد شخصية تاريخية مهمة في صراعات النفوذ الإقليمية، بقي أسابيع عدة في دمشق بين الذهاب والإياب من العاصمة العثمانية، وقد تم تدريبه على طقوس جمعية الفتاة التي أصبح عضوًا فيها، والتقى بالضباط المتآمرين في جماعة العهد. عزا إليه القوميون اتفاقًا يكلف أباه بالتفاوض مع بريطانيا العظمى للاعتراف بدولة عربية مستقلة في الولايات العربية للإمبراطورية العثمانية، وفي مقابل ذلك حلف دفاعي. حاكم مكة القوي بسبب دعم القوميين العرب راهن أيضًا على تأييد الإسلاميين العرب في مطالبته بالخلافة التي تعود بهذه الطريقة إلى حاكم عربي من بيت الرسول.

على هذا الأساس بدأ الشريف حسين في تموز/ يوليو 1915 مراسلات سرية مع هنري ماكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر. تمت مراسلات حسين- ماكماهون بالعربية، وهو ما يستبعد أي غموض في الترجمة. في 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1915 يكتب البريطاني أن «بريطانيا العظمى مستعدة أن تعترف وتدعم استقلال العرب في كل الأقاليم المقيمين فيها داخل الحدود التي عينها شريف مكة»[11].

بدأ سجال حول السمة (العربية تمامًا) للساحل السوري (متضمنًا

(11) Cité in George ANTONIUS, The Arab Awakening, Hamilton, Londres,1961, p.170

إذًا لبنان الحالي وفلسطين المقبلة)، التي يرى الشريف حسين أنه لا مراء فيها. في كانون الثاني/ يناير 1916 لم يعد ماكماهون يطرح مسألة عروبة ساحل الشام، ولكن في المقابل يلحق إدخال السهل في الالتزامات البريطانية بموافقة فرنسا، وعدّ حسين أنه حصل على ما هو أساسي. استعد من جانبه أن يطلق (ثورة) عربية ضد القوات العثمانية؛ الثورة هذا المصطلح الذي تمت ترجمته بكلمة révolte. باقي مراسلات حسين – ماكماهون تتناول الشروط العملية لإطلاق هذه الانتفاضة العربية وقيادتها.

جمعت الإمبراطورية البريطانية في آذار/ مارس 1916 (قوة غازية لمصر) مع مكونات أسترالية وهندية بدأت في استرداد سيناء. رد جمال باشا على ذلك بقهر قاس للتمرد العربي مع ترحيل مئات العائلات السورية واللبنانية إلى الأناضول. في أيار/ مايو 1916 تم شنق واحد وعشرين شخصية عربية في دمشق وبيروت، وقد أصبحوا شهداء (مبجلين) للنزعة القومية العربية من بينهم سبعة عشر مسلمًا وأربعة مسيحيين.

الثورة العربية

هذه الإعدامات عجلت بقرار الشريف حسين الانتفاض في حزيران/ يونيو 1916 ضد السلطة العثمانية. سقطت مكة وجدة بسرعة في يديه، في حين أن ابنه فيصل حاصر موقع الإمدادات التركية في المدينة، كان المتمردون بين 30000 و40000 ولكنهم لا يملكون سوى حوالى 10 آلاف بندقية ومحرومين من المدافع. أرسلت بريطانيا العظمى وفرنسا سريعًا بعثة عسكرية إلى المتمردين. الكولونيل إدوارد بريمون المسؤول عن البعثة الفرنسية يساعده معلمون مغاربة وجزائريون.

وكان الحج الذي يجري في تشرين الأول/ أكتوبر 1916 فرصة للشريف حسين أن يستقبل وفودًا آتية من العالم العربي كله، مع تشجيع الفرنسيين (بالنسبة لشمال أفريقيا) والبريطانيين (بالنسبة لمصر). رفع بطل الثورة العربية المنع الذي كان واقعًا عام 1912 على الحجاج الوهابيين، ومع ذلك لم يكن لديه أي وهم عن ولائهم الفعلي لابن سعود الذي يؤيده بكلمات طيبة ومن دون أن يشترك فعليًا في الانتفاضة.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1916 أطلق الشريف حسين على نفسه (ملك البلاد العربية) بما يتطابق مع حرفية وروح مراسلاته مع ماكماهون، ولكن باريس ولندن لا تعترفان به إلا (ملك الحجاز)، ولسبب بدهي: الإمبراطوريتان الاستعماريتان قد اتفقتا سرًّا على اقتسام الشرق الأوسط، وهو ما يتعارض مع الالتزامات التي عقدتها المملكة المتحدة مع الشريف حسين بوساطة هذه الاتفاقات التي عقدت في أيار/ مايو 1916، والمعروفة باسم (سايكس -بيكو) باسم المتفاوضين مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكو. أعطت فرنسا نفسَها سلطة مباشرة على قليقية ولبنان والساحل السوري (المنطقة الزرقاء) وكذلك (منطقة نفوذ) من دمشق وحلب حتى الموصل. وبريطانيا العظمى من جانبها لها التحكم المباشر في الأقاليم من بغداد وإلى البصرة (المنطقة الحمراء)، بالإضافة إلى (منطقة نفوذ) من عمان والعقبة إلى كركوك.

عُدّت فلسطين في إطار اتفاقات سايكس بيكو (منطقة بنية)، لأن فرنسا قد أبرزت (حقوقها) في حماية الأماكن المقدسة الكاثوليكية في القدس وبيت لحم والناصرة. وحينما علمت روسيا بالاتفاقات التي تمت بين حليفيها، وضعت في الصدارة (حقوقها) على المؤسسات الأرثوذكسية. التسوية التي تم التوصل إليها كانت تدويل هذه (المنطقة البنية).

استقبل الملك حسين في جدة في أيار/ مايو 1917 سايكس وجورج بيكو اللذين ضمنا له سلطته المستقبلية على (سوريا المسلمة). وبالفعل لم يكن الحلفاء يريدون إحباط هذه الثورة العربية التي نجحت بحصارها وقتلها وأسرها وتحييدها عشرات الآلاف من العسكريين الأتراك. الاستيلاء الجريء على العقبة بوساطة الثائرين العرب في تموز/ يوليو كان عظيمًا لو عرفنا أن الجيش البريطاني ظل شهورًا عدة (محلك سر) على أبواب غزة التي حصنها الأتراك لإغلاق فلسطين.

أدت الثورة العربية إلى تسارع الهرب والاستسلام في صفوف العثمانيين. حاول جمال باشا أن يوقف النزيف بإعلانه في تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 عن عفو غير مشروط لكل أنصار الشريف حسين، الذي سوف يسلم نفسه خلال ثلاثين يومًا، ولكن الثائرين العرب استمروا في تقدمهم نحو الشمال من العقبة حتى الطفيلة للتحرش بالثكنات التركية في معن. وعلى الضفة الأخرى من نهر الأردن سيدخل البريطانيون الذين أصبحوا أسيادًا على غزة أخيرًا إلى القدس.

حرب من أجل الآخرين

كلما بدت هزيمة العثمانيين وشيكة، بدت بريطانيا أقل تمسكًا بوعودها تجاه حلفائها الفرنسيين والعرب. كانت اتفاقات سايكس- بيكو تطيح الضمانات في مراسلات حسين مكماهون. ومن أجل القضاء على أي منظور لتدويل فلسطين اتجهت لندن هذه المرة إلى التحالف مع الحركة الصهيونية في صيغة رسالة أرسلها آرثر بلفور، وزير خارجية إنكلترا. (وعد بلفور) هذا ينص في تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 على «أن حكومة جلالة الملكة تنظر بعين العطف إلى تأسيس لوطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل كل

جهودها لتحقيق هذا الهدف، مع الأخذ في الاعتبار أن لا شيء سوف ينتقص من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين))[12].

في اللحظة التي صيغ فيها هذا (التصريح) كان الجيش البريطاني ما زال (محلك سر) على أبواب غزة، ومن ثَمّ ليس له أي سلطة على فلسطين التي يمنحها بكرم لطرف ثالث. وأخطر من هذا أن السكان العرب الذين يمثلون 90 بالمئة من السكان الفلسطينيين تم اختزالهم إلى تجمعات (لطوائف غير يهودية) لم يعترف لها بحقوق قومية، في حين إن الولايات المتحدة في عهد الرئيس ويلسون قد وضعت في الصدارة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

أثار تصريح بلفور اضطرابات في العالم العربي، ولا سيما في القاهرة. وعلاوة على ذلك أدت الثورة البلشفية إلى إعلان الاتفاقات السرية لسايكس-بيكو بوساطة ليون تروتسكي الوزير الثوري للشؤون الخارجية. تلقى الشريف حسين ذاهلاً من مثل هذه الخيانة في شباط/ فبراير 1918، ضمانات مكتوبة في شباط/ فبراير 1918 لدعم لندن ((لتأسيس عالم عربي يحل الحق فيه محل الظلم العثماني))[13]. ها نحن بعيدون عن التزامات اتخذت قبل ذلك بعامين لصالح (استقلال العرب) بواسطة ماكماهون.

ليس لدى العرب الثائرين أي اختيار سوى مواصلة الهجوم وهدفهم دمشق؛ القلب النابض للنهضة المعادية للأتراك، وعاصمة أول إمبراطورية عربية عاصمة الأمويين من 661 إلى 750. أقام فيصل في أيلول/ سبتمبر 1918 في مدينة أزرق وقطع الطريق بين

(12) Cité in Henry LAURENS, Le Retour des exilés, Robert Laffont, Paris,1998, p.216-217.

(13) Cité in George ANTONIUS, The Arab Awakening, op. cit., p.432

عمان ودرعا؛ عملية مؤلفة آنذاك من العرب والبريطانيين يمكن أن تزيح الجيوش التركية. تم التهليل لفيصل عند دخوله إلى دمشق حيث كان يسبق قليلًا قائد الأركان البريطاني.

لعب الثوار العرب دورًا مهمًا في الاستيلاء على حلب، في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1918. هذه الهزيمة النهائية حطمت المقاومة العثمانية، وتم التوقيع على هدنة بين الأتراك والبريطانيين في مودروس. خرجت سوريا التاريخية من الصراع منهكة؛ حيث مات بلا شك أكثر من 300000 مدني، وتفاقمت المجاعة في عام 1915 بسبب كارثة هجوم الجراد. مصادر مختلفة تقدر نسبة ضحايا الحرب بحوالي عُشر السكان السوريين، بل حتى ثلث سكان جبل لبنان.

فى الطرف الآخر من العالم العربي 25000 من العسكريين المسلمين من (الجزائر الفرنسية) قُتلوا في أثناء الحرب العالمية الأولى (خسارتهم مكافِئة لخسارة الأوروبيين التي كانت فرقتها المنخرطة بالحجم نفسه). ولكن العرب الجزائريين سقطوا تحت علم المستعمر، في حين إن عرب المشرق ظنوا أنهم يحاربون من أجل تحررهم، ومن ثم فسقوطهم أشد وطأة.

سلام من دون العرب

مؤتمر السلام في باريس افتتح في كانون الثاني/ يناير 1919 واستمر أكثر من عام ونصف. كان ينبغي أن تضغط بريطانيا ضغطًا هائلًا حتى ترضى فرنسا وتدعو فيصل فقط باسم وفد الحجاز. الولايات العربية القديمة للإمبراطورية العثمانية هي من الآن فصاعدًا منظمة في صورة (إدارات لأراضى معادية محتلة) (OETA

حسب الحروف الأولى من المصطلح الإنكليزي)؛ OETA الجنوب تغطي فلسطين تحت السلطة البريطانية OETA الشمال تغطي لبنان والساحل السوري وقليقلة تحت السلطة الفرنسية OETA الشرق من درعا وحتى حلب تحت سلطة أنصار فيصل.

جماعة الفتاة السرية التي انضم إليها فيصل عام 1915 تتشكل حزبًا عربيًا للاستقلال. نظم هذا الحزب في حزيران/ يونيو 1919 انتخابًا في مناطق OETA الثلاث، وأدت إلى استدعاء في دمشق لمؤتمر عام سوري (ومن بين خمسة وثمانين منتخبًا منع الفرنسيون ستة عشر من حضور الاجتماع). طالب المؤتمر فيصل أن يكون على رأس «ملكية دستورية قائمة على مبادئ حكومة ديمقراطية وغير مركزية حتى نضمن حقوق الأقليات»[14]. رفض أي تقسيم لسوريا وكذلك رفض الاستيطان اليهودي؛ تم التعبير عنها بصورة حاسمة.

بينما كانت تدور هذه المناورات الكبرى بالنسبة إلى سوريا، دخلت مصر أيضًا مرحلة الغليان. سعد زغلول القريب من محمد عبده (الشخصية الكبرى في النهضة المصرية) أسس حزب الوفد الذي كانت مهمته الدفاع عن قضية الاستقلال المصرية في مؤتمر باريس. وقد اعتُقل زغلول وثلاثة من رفاقه بواسطة السلطات الإنكليزية في آذار/ مارس 1919 ونُفيوا إلى مالطة. هذه الاعتقالات بدلًا من أن تعمل على تهدئة مصر أثارت انتفاضة شعبية كبرى.

ومات نحو ألف من المصريين بسبب القمع البريطاني لهذه الثورة التي نجد سمات عدة لها في ما بعد في ثورة ميدان التحرير في 2011: اختيار متعمد للّاعنف في مواجهة عدو له قوة نيران ساحقة، وتركيب من مسيرات احتجاج وإضرابات متوالية من أجل استنفاد

---

(14) Ibid., p.440.

جهاز القمع، والإلحاح على شعارات وطنية وليست دينية مع الجمع رمزيًا بين الهلال والصليب ضد المحتل.

القمع الوحشي للاحتجاج المصري لم يمنع مؤتمر باريس تأكيد الحماية البريطانية على هذا البلد. منذ ذلك الحين وضع المناضلون العرب آمالهم كلها في عصبة الأمم التي كانت بصدد التكوين، والمستلهمة من مبادئ الرئيس ويلسون. ولكن مجلس الشيوخ الأميركي يرفض التصديق على معاهدة تأسيس عصبة الأمم، وهكذا ستكون الولايات المتحدة غائبة عن هذه (العصبة) التى تدين لها كثيرًا، وهو ما يطلق يدي باريس ولندن كي يختزلا إلى أقصى حد (الحق في تقرير المصير) للشعوب العربية.

فرض الانتداب بالقوة

في كانون الثاني/ يناير 1920 عقد أول اجتماع لعصبة الأمم في لندن قبل أن تنقل مقرها إلى جنيف، وبعد ذلك بشهرين أعلن المؤتمر السوري العام في دمشق استقلال سوريا (شاملة فلسطين ولبنان التي سوف تمنح حكمًا ذاتيًا واسعًا) مع فيصل بوصفه الحاكم الدستوري. لم تصدق القوى الاستعمارية، وتمكنوا أن يمنحهم المؤتمر الدولي المنعقد في سان ريمو في نيسان/ أبريل 1920 انتدابات من عصبة الأمم (على سوريا ولبنان وبريطانيا على فلسطين والعراق).

الانتدابات التي تقررت في سان ريمو هي في الفئة أ: "بعض الجماعات التي كانت تنتمي في ما سبق للإمبراطورية العثمانية قد وصلت إلى درجة من التنمية تجعل من الممكن الاعتراف موقتًا بوجودهم كأمم مستقلة، بشرط أن تكون هناك نصائح ومساعدة من قوة انتداب ترشد الإدارة حتى تلك اللحظة التى يمكنهم فيها

التصرف وحدهم. رغبة هؤلاء السكان في اختيار المنتدبين ينبغي أن تؤخذ أولًا في الحسبان))[15].

هذا (العمل البديع) من النزعة الأبوية الاستعمارية ألقى الزيت على النار في فلسطين، حيث قامت انتفاضات هزت القدس. في أيار/ مايو 1920 دخل العراق في انتفاضة مدنية أولًا ثم عسكرية بعد ذلك. اتحد السنة والشيعة في جهاد للتحرير ضد المحتل البريطاني. كان يلزم شهور عدة و10000 شهيد عربي حتى يتمكن البريطانيون خنق هذه (الثورة).

أطلق الجنرال غورو المندوب السامي الفرنسي في بيروت في 14 تموز/ يوليو 1920 تحذيرًا نهائيًا لفيصل. القوات الفرنسية تحركت سريعًا وسحقت المقاتلين الوطنيين على طريق دمشق. واتخذ غورو مقره في القصر القديم (لملك سوريا) العابر الذي فر من البلاد. وقد أصبح هذا القصر بعد الاستقلال مقرًا لسفراء فرنسا في دمشق. ويزعم أن غورو، ردًا على التكريم الذي قدمه غوليوم الثاني لصلاح الدين في عام 1898، ذهب إلى دمشق إلى قبر صلاح الدين ليلقي عليه: ((استيقظ، لقد عدنا)). هذا القول الذي ربما كان منتحلًا يبين مع ذلك المناخ الانتقامي الذي يسود في فرنسا عام 1920، حيث تخوض الكنيسة والبرلمان (أفق أزرق) حملة لصالح مسيحيي الشرق وفي المقدمة موارنة لبنان، من دون اهتمام خاص بالسكان العرب الآخرين.

وفي إطار هذه الروح تم الإعلان في أيلول/ سبتمبر 1920 عن (لبنان الكبير) تحت انتداب فرنسي يتجاوز حدود جبل لبنان، وهو الماروني تقليديًا، لتشمل البقاع وجنوبي لبنان (بأغلبية شيعية)

(15) Paragraphe 4 de l'article 22 de la charte de la SDN

وكذلك طرابلس وضواحيها بأغلبية سنية. وكان المستشرق لويس ماسينيون في بعثة بعد ذلك في بيروت قد نبه السلطات الفرنسية ضد هذا الاحتواء التوسعي لأن «تحقيق الحلم العزيز على الموارنة قد يقع» في نهاية المطاف المندوب «تحت نير الأغلبية المسلمة»[16].

المندوب الفرنسي بدلًا من أن يسمع هذه النصائح الحكيمة عمل بالعكس على (تقطيع) ما بقي من سوريا إلى أربع (دول) بلا سابقة تاريخية: دولة في دمشق ودولة في حلب ودولة للعلويين وعاصمتها اللاذقية، ودولة الدروز وعاصمتها السويداء. بينما شهد الدروز شكلًا من الاستقلال بوساطة العثمانيين من دون أن يصلوا أبدًا إلى كيان (الدولة)، حقق العلويون اقتحامًا غير مسبوق إلى مقدمة المشهد الانتدابي. صحيح أن فرنسا لم تكن تنوي أن تراهم يلعبون الدور نفسه حلفاء للنفوذ الاستعماري على النحو الذي يقوم به الموارنة في لبنان.

بريطانيا العظمى من جانبها استعادت فيصل ملك دمشق المخلوع لتجعله ملكًا على العراق. هذه المناورة قد دعمها تنظيم استفتاء ذو سؤال واحد يعطي 96 بالمئة من الأصوات لصالح تتويج فيصل. بينما كانت المقاومة المعادية للاستعمار تجمع السنة والشيعة، كان البريطانيون يعيدون بناء دولة العراق حول ضباط قدامى عرب وسنة في الجيش العثماني. يظل هذا الخلط في العراق الذي يسوده في بغداد العرب السنة، ولايات البصرة (أغلبية شيعية) والموصل (أغلبية كردية) حاملًا لتوترات إقليمية وطائفية في آن معًا.

تحقق هذا التقسيم الاستعماري في 1922 بإدماج وعد بلفور في الانتداب البريطاني على فلسطين، وهو ما أدى إلى مقاطعة المؤسسات

(16) Rapport de mission en Orient de Louis Massignon, 4 novembre 1920 - 6 janvier 1921

الانتدابية من قبل الأعيان والسكان العرب. استبعدت لندن من هذا الانتداب إمارة شرقي الأردن وهي دولة مصغرة بين الأردن والعراق ومنحت لعبد الله أحد إخوة فيصل.

آخر الخلفاء العرب

مثل هذا المشهد الصادم يثبت، إذا دعت الحاجة، عدم شرعية الانتدابات في عيون غالبية السكان العرب. الجانب التركي في مقررات سان ريمو قاوم هو الآخر مقاومة مستميتة، قادها مصطفى كمال (الذي حمل عام 1934 لقب أتاتورك "أبو الأتراك"). كانت تركيا وقتئذ مقطعة الأوصال بين أراضٍ متروكة لليونان ولفرنسا ولبريطانيا العظمى، علاوة على مناطق النفوذ التي تم الاتفاق بشأنها في باريس وروما ولندن. في تموز/ يوليو 1923 بعد تنقلات مريعة للسكان حدد اتفاق لوزان حدود تركيا المعاصرة. تم إعلان الجمهورية التركية ومصطفى كمال أول رؤسائها، وتم إلغاء السلطة، ولكن السلطان المخلوع يبقى شكليًا خليفة حتى إلغاء هذه المؤسسة في آذار/ مارس 1924 باقتراع في البرلمان التركي.

الشريف حسين (ملك الحجاز) المتواضع لديه ابنان اعتليا عرش العراق وشرق الأردن، ولكن الحلم في (مملكة عربية) الذي داعبه قبل ذلك بعقد من الزمان قد محي تمامًا. ونظرًا إلى غياب إمكان اللعب على النبض القومي للنهضة، ظن حسين أنه يمكنه أن ينشط السجل الإسلامي، بمطالبته بالخلافة بوصفه عربيًا من نسل الرسول. وكان هذا هو معنى المؤتمر الإسلامي الذي جمعه في تموز/ يوليو 1924 في مكة بمناسبة الحج، ونقل لقب ملك الحجاز إلى أحد أبنائه؛ علي.

ولكن الأب الهاشمي على الرغم من ذلك أساء تقدير شدة

الكراهية التي غذاها منافسه ابن سعود، فقد نأى المناضلون الوهابيون عن اللحاق بالثورة العربية، مستبقين حينذاك المواجهة التي لا يمكن تفاديها في نظرهم مع الهاشميين. قاموا بحركة تجاه الحجاز في خريف 1924 واستولوا على مكة حيث دخلوها وبنادقهم موجهة إلى الأرض، ثم المدينة. ولكن بعد حصار طويل سقطت جدة بين أياديهم في كانون الأول/ ديسمبر 1925.

لم تدم الخلافة العربية في مكة طويلًا كما لم تدم المملكة العربية في دمشق قبل ذلك بأربع سنوات. إذا كانت المملكة قد أطاحها الجيش الفرنسي فإن الخلافة أطاحتها قوات ابن سعود. مملكة نجد والحجاز سوف يطلق عليها قريبًا العربية السعودية، مشددة بذلك على طموح العائلة المالكة فيما وراء المذهب الوهابي. هذه العربية (السعودية) هي البلد الوحيد في العالم الذي يشار إلى مواطنيه بصفة تنطلق من اسم العائلة المالكة (فنحن لا نطلق على الأردنيين «الهاشميين»، ولا نطلق على الإسبان «البوربونيين»....).

تستفيد المملكة العربية السعودية أكبر استفادة من الإنكار الأوروبي حق الشعوب العربية في تقرير مصيرها في ما يزيد على قرن من النهضة العربية، بدلًا من عقد صلات دائمة بين القوى الأوروبية وعرب النهضة، أدى بالعكس إلى تكريس دولة سعودية قامت على أيديولوجية معادية للنهضة وهي الوهابية، قبل حتى اكتشاف البترول. ينبغي أن نرى في هذا المسار القاسي أحد الأسباب الكبرى في إضعاف التنوير العربي.

وهناك نتيجة فاجعة ليست ثمرة لمؤامرة غامضة بقدر ما تأتي من رفض مستمر من قبل متخذي القرار الفرنسيين والبريطانيين في معاملة العرب على قدم المساواة، في حين إن الإمبراطوريتين الاستعماريتين

قد شجعتا على حلف بين العرب ضد العدو التركي - الألماني. ليس هناك تآمر ميكافيللي أكثر من ذلك الذي يتمثل في القنبلة الموقوتة التي تشكلها الانتدابات على مستوى الديموغرافيا وعلى مستوى الحدود. ولكن فرض القوى الخارجية سيطرة المسيحيين في لبنان أو السنة في العراق لن يؤدي سوى إلى تغذية التفسيرات الهوسية، التي تزدهر اليوم.

ابن سعود على الرغم من الفوائد التي يراكمها من هذا العمى الغربي سيتساءل فيما بعد أمام رئيس أميركي حول هذه الإرادة في أن يطلب من حلفائه العرب أن يدفعوا أخطاء الآخرين(17). بالنسبة إلى العرب، سوف تترك معاملتهم كأعداء بوساطة الأوروبيين الذين ساندوهم بإخلاص كأصدقاء، شعورًا عميقًا بالظلم. إن تنظيم الانتخابات والدعوة إلى الدستور بالفعل لن يكفي العرب كي ينسوا الآلة الجهنمية للانتدابات.

الزائر الحالي للشرق العربي لن يندهش حينما يتلقى في وجهه "بسايكس- بيكو" و(بوعد بلفور)، وحتى إن لم يكن قد ولد في أثناء تلك الإساءات في استخدام السلطة. لا ينبغي أن نرى في ذلك رغبة في تأنيب الأوروبي باسم توبة أداتية إلى حد ما. لا، بالفعل يوجد عدم فهم عميق من جانب العرب: كيف أمكن لفرنسا وبريطانيا العظمى تبني سياسة مشبوهة أخلاقيًا وأيضًا من الناحية الإستراتيجية تتضمن كثيرًا من المخاطرة؟ بعد ذلك بقرن ما زلنا ندفع توابع (الأزمات الشرق أوسطية)، ثمن قرارنا بإخضاع العرب بدلًا من التحالف معهم.

---

(17) يتعلق الأمر بالمقابلة في 14 شباط/ فبراير 1945 بين ابن سعود وفرانكلين روزفلت. انظر

Jean-Pierre FILIU et David B., Les MeilleursEnnemis, Tome I, 1783-1953, Futuropolis, Paris, 2011, .78-79.

3

نصف قرن من الاستقلال

(1922-1971)

انتفاضات ومفاوضات وحروب استقلال

مر العالم العربي بأسره تحت السيطرة الاستعمارية في أعقاب الصراع العالمي الأول، باستثناء الجزيرة العربية التي ستصبح سعودية والإمامة المنطوية على ذاتها في اليمن. كان يلزم نصف قرن ليصل تدريجيًا إلى (استقلال العرب) الذي ألهم الحلم به الثورة العربية في عام 1916. هذه الدورة من التحرر الشاق افتتحت في عام 1922 بالاستقلال الشكلي لمصر الذي كان هو نفسه ثمرة للثورة غير العنيفة في عام 1919.

فهمت القوى الإمبريالية، بعد هذا التراجع النسبي، أنه كان يستحسن من أجل الاحتفاظ بالسيطرة على الأراضي العربية مواجهة انتفاضات مسلحة بدلًا من انتفاضات مسالمة. وبهذا تبقى علاقات القوى ساحقة لصالح الجيوش الغربية، كما يثبت ذلك خنق (الثورة) العراقية عام 1920 التي بقيت بلا غد- على عكس (الثورة) المصرية عام 1919.

الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة الحديدية يأتي في تموز/ يوليو 1921، حينما تشتت الفيلق الإسباني في الريف المغربي. عبد الكريم الخطابي قاضي من البربر درس في فاس وسلامنك، نادى بعد ذلك بجمهورية كونفدرالية لقبائل الريف. كان التحدي كبيرًا لدرجة أنه

أدى في أيلول/ سبتمبر 1923 إلى انقلاب الجنرال ميغيل بريمو دي ريڤيرا، وإلى تعليق الدستور الإسباني. وفرنسا من جانبها أرسلت على وجه السرعة المارشال فيليب بيتان إلى المغرب. دعا عبد الكريم بلا جدوى سلطان المغرب إلى التضامن معه، ولكنه تحصن خلف حاميه الفرنسي. جمهورية الريف تلاشت في أيار/ مايو 1926 بسبب عدوان فرنسي - إسباني هائل برز فيه الجنرال الشاب فرانشيسكو فرانكو.

في تموز/ يوليو 1925 دخلت سورية، والمفترض أنها (هادئة) بوساطة الانتداب الفرنسي من جديد في (ثورة). تمت الدعوة إلى استقلال سوريا بوساطة مجلس وطني للثورة، مع مساواة صريحة بين المواطنين من الطوائف جميعها. القمع القاسي وصل إلى ذروته مع عدوان أكثر من 40000 عسكري في دمشق، في ضاحية الغوطة (حيث اتخذت حرب عصابات شبه مدنية منها مقرًا لها) وفي أقاليم الدروز. الكاتب جوزيف كيسل الذي كان موجودًا هناك وقتها يعلق وقد تملكه الذهول ((نحن نريد أن نجعل السكان يشمئزون من انتدابنا، باختصار لو أردنا أن نفقد سورية ما كنا نفعل شيئًا غير الذي فعلناه))[18].

استمرار النهضة

تصدعت دينامية التحرر القومي للنهضة العربية في أثناء الحرب العالمية الأولى. الاتجاهات الكبرى للقرن التاسع عشر تواصلت مع مزيد من العمق: تقدم التعليم باللغة العربية في المجال العلماني أي المتحرر من سلطة ما هو ديني،والصعود القوي للإنتاج الأدبي المطبوع

(18) Joseph KESSEL, En Syrie, Kra, Paris,1927, p.94.

باللغة العربية، وتبادلات مكثفة بين الشهادات الدراسية من البلاد العربية المختلفة والشتات.

أصبحت مصر مستقلة في شباط/ فبراير 1922، سوف يكون لها قريبًا دستور يقر فيه الملك فؤاد بسيادة الشعب، وقد أقر هذا الدستور استفتاءًا عامًا للرجال. على الرغم من ذلك أقام المستعمر البريطاني حدودًا عدة على سلطات هذه الملكية الدستورية في مجال الدفاع والاتصالات وحماية الأقليات، وحماية المصالح البريطانية سواء في السودان أو في قناة السويس.

انتصر الزعيم الوطني سعد زغلول باسم الوفد في كانون الثاني/ يناير 1924 في أول انتخابات بمصر المستقلة. وسيطر على المشهد السياسي رئيسًا للوزراء ثم رئيسًا للبرلمان، حتى وفاته في آب/ أغسطس 1927. مصطفى النحاس الذي خلفه في رئاسة الوفد تولى خلال عقدين من الزمان إما رئاسة الحكومة أو قيادة المعارضة. السمة الدستورية للملكية المصرية حافظت على حياة سياسية تعددية على خلفية من صحافة حرة نسبيًا. ولكن (الخطوط الحمر) التى حددها المحتل البريطاني كانت تفرض نفسها على كل فاعلي الحياة البرلمانية رغمًا عنهم أو برضاهم. الاحتجاج على هذا التواطؤ من قبل النخبة الوطنية أدى في عام 1928 إلى مولد حركة من نوع جديد: الإخوان المسلمون.

مؤسسها حسن البنا أراد -كما سعد زغلول- أن ينسب نفسه إلى تأثير محمد عبده، لكنه مع ذلك يندرج تحت خط رشيد رضا الذي قاد أطروحات محمد عبده في اتجاه (سلفي) أكثر تشددًا من كونه (إصلاحيًا). قبل كل شيء يرفض البنا رفضًا قطعيًا شعار الوفد (الدين لله والوطن للجميع)؛ فالإسلام في نظره له بعد سياسي

صريح، والأخوة بين المؤمنين هي التي تؤسس للقومية الأصيلة. التشديد على البعد (الإسلامي) من قبل البنا لا ينزع شيئًا من التزامه (الوطني) لأنه يزعم أنه أكثر وطنية من الوفد.

البنا الذي كان والده يحمل شهادة من الأزهر لم يكن شيخًا وإنما معلمًا عُيِّن في الإسماعيلية مقر شركة قناة السويس، وكان شاهدًا بصورة يومية على السيادة الغربية على مصر (المستقلة)؛ محاضرًا لا يكل، وداعية ماهرًا، احتفظ في يديه بوصفه المرشد بالتحكم الكامل في المنظمة التي استطاع في وقت قصير أن يزرعها في أنحاء البلاد جميعها.

هذه العلاقة الحميمة بين المكونات الإسلامية والقومية للنهضة موجودة أيضًا في تونس تحت الحماية الفرنسية، وبسبب تاريخ الحركة الاستقلالية التونسية نعتبرها غالبًا حركة (علمانية) و(حداثية). وننسى أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي تلقى تعليمه بالجامعة الإسلامية بالزيتونة هو الذي أسس عام 1920 الحزب الليبرالي الدستوري المعروف باسم حزب الدستور الذي كانت مهمته (تحرر الشعب التونسي).

الثعالبى كاتب بيان (تونس الشهيدة) حُكم عليه بالسجن مدة عام، وفضل النفي عام 1923 حتى يتفادى اعتقالات جديدة، واستمر من الخارج يتكفل برئاسة حزب الدستور. قام الثعالبي بتعميق العلاقات النضالية في مجمل العالم العربي ولا سيما مع الشيخ ابن باديس في قسطنطينة. ألهم بن باديس عام 1931 جمعية العلماء الجزائريين التي كان شعارها (الإسلام ديننا، العربية لغتنا والجزائر بلدنا).

قاد القوميون التونسيون حملة طويلة المدى ضد عمليات التجنيس التي تقوم بها الحماية الفرنسية، معتبرين أنها تنتهك السيادة التونسية.

في عامي 1932–1933 توترت هذه الحملة بسبب الفتوى التي أطلقها إمام قومي في بنزرت بأن التجنيس ردة عن الإسلام. تمكنت الإدارة الاستعمارية الحصولَ على فتوى مضادة من جانب العلماء الميالين إلى فرنسا. توالت التظاهرات لمنع موتى المسلمين حاملي الجنسية الفرنسية من الدفن في مقابر المسلمين.

كان هناك محام طموح هو الحبيب بورقيبة الذي انتخب للتو في قيادة حزب الدستور في أيار/ مايو 1933، حينما جاء اعتراضه الشديد على دفن تونسي أبوه مجنس بالجنسية الفرنسية في المقابر الإسلامية بمدينة الموناستير (مكان ميلاد الحبيب بورقيبة) أثار أزمة خطرة داخلية. شهد مؤتمر آذار/ مارس 1934 تفكك الحزب لصالح (الدستور الجديد) بقيادة بورقيبة. واجه الثعالبي عند عودته في تموز/ يوليو 1937 العداء الفظ أحيانًا من جانب أنصار بورقيبة، المصممين على أن يلقوا بالدستور (القديم) في مزبلة التاريخ.

في قلب هذه المناورات السياسية الكبرى كان القوميون والإسلاميون يلعبون غالبًا لعبة المزايدات العكسية. البنا وإخوانه المسلمين يتهمون الوفد بالتخلي عن الوطنية أمام الوصاية البريطانية، بورقيبة والدستوريون الجدد يمنعون التونسيين الحاصلين على الجنسية الفرنسية من الدفن في مقابر المسلمين، مقيمًا بذلك تعادلًا بين الجنسية التونسية والدين الإسلامي.

استمر الشعراء في تجسيد اكتمال المطلب التحرري للنهضة، وهذه هي حالة الشاعر المصري حافظ إبراهيم الذي نشر عام 1932 قبل موته «نحن شهود على القهر الذي تسمونه عدلًا»، أو التونسي أبو القاسم الشابي مؤلف إرادة الشعب في عام 1933، وأربعة السطور الأُوَل في هذا الديوان تحولت بعد ذلك إلى النشيد الوطني لتونس المستقلة.

تلاعبات ومظالم استعمارية

منحت فرنسا في أيار/ مايو 1926 دستورًا للبنان الكبير الذي أصبح بذلك جمهورية لبنان، والمادة الخامسة فيه تضمن مصالح القوة الاستعمارية (ونظام الانتخابات الطائفي) ديمقراطي معقد وكوته طائفية. وقد شدد الدستور على السمة الموقتة لهذه الصيغة، وأكد مبدأها في المادة 95: سوف تمثل الطوائف بإنصاف في الوظائف العامة وتشكيل الوزارة. دارت حياة برلمانية مكثفة في هذا الإطار الدستوري تنعشها صحافة أكثر تطورًا في الإقليم... وتعرف فرنسا أنها لن تخشى شيئًا من التعددية الطائفية، لأنها أقل تهديدًا لسيطرتها من إرادة قومية صريحة.

في سورية في المقابل حاولت فرنسا جاهدة بلا جدوى أن تدفع إلى دستور يرسخ هيمنتها. فرضت قوة الانتداب آنئذ عام 1930 (الأوضاع العضوية) لدولة سورية والتي تتميز فيها (الحكومات) من المناطق العلوية (اللاذقية) والدروز (السويداء). رد القوميون برفعهم في حلب في 1932 علمًا فيه ثلاث نجوم حمر على خلفية بيضاء، يحيطها شريط أخضر فوقها وشريط أحمر تحتها؛ تمثل دمشق وحلب نجمتان، والثالثة يمكنها بحسب المكان أن تمثل دير الزور، اللاذقية، السويداء أو أي مدينة أخرى يريد المستعمر أن يفصلها عن الوحدة السورية.

أن تكون الحياة السياسية مرتبكة بسبب هذا التشتت الطائفي كما في لبنان أو مقيدة بوساطة التعسف الانتدابي كما في سورية، فإنه أمر يظل واقعيًا ومتناقضًا. في ليبيا لم تشغل إيطاليا الفاشية نفسها بأي اعتبار من الاعتبارات التي تضع على الرغم من كل شيء حدًا لتصرف فرنسا الجمهورية في الأراضي التي تحتلها. استعمار واستيطان

ولاية طرابلس يصبح فعلًا إيمانيًا، في حين إن اتفاق 1920 من الحكم الذاتي تم العصف به، وأجبر الأمير إدريس السنوسي أن ينفي نفســه إلى مصـــر المجــاورة.

جـاء بنيتو موســوليني ليحفز 20000 مستوطن إيطالي في طرابلس في نيسان/ أبريل 1920. بعد ذلك بسنتين فاقم غزو خليج سرت من عزلة برقة حيث يقود عمر المختار مقاومة باسم الأمير إدريس. أطلق رودلفو غرازيا المرحلة الأخيرة (للتهدئة) عام 1930، أولًا باحتلال الولاية الجنوبية فزان، وثانيًا بعد أن احتجز في معسكرات اعتقال نصف السكان البدو في برقة.

مات عشرات الآلاف من المدنيين في هذه المعسكرات التي كانت الدعاية الفاشية تقدمها على أنها مراكز تكيف على حياة الاستقرار. شعر عمر المختار المحروم من قاعدته الشعبية أن الحصار يضيق عليه. تم أسره في أيلول/ سبتمبر 1931 وأُعدم في ميدان عام في بنغازي. وحرب العصابات الليبية لم تستمر بعد موته إلا أشهرًا عدة. وعلى الرغم من ذلك استلزم غزو إيطاليا باقي البلاد عقدين من الزمان. التكلفة التي تحملها السكان المحليون كانت أكثر فداحة من التكلفة الفادحة أصلًا التي تحملها الجزائريون بوساطة فرنسا في القرن الماضي.

ألمانيا في المقابل لم يكن لها بعد أي طموح استعماري ولكن وصول النازي إلى السلطة عام 1933 أدى إلى هجرة يهودية مكثفة. وفي خلال عام تضاعف مرتين عدد الجالية اليهودية في فلسطين حتى وصل إلى حوالى 30 بالمئة من السكان في الأراضي تحت الانتداب. هذا الضغط غير المسبوق للهجرة هو السبب المباشر للثورة العربية (1936-1939)، هكذا أطلقت مرة أخرى على هذه الانتفاضة كلمة (ثورة).

تم إعلان إضراب عام في نيسان/ أبريل 1936 بوساطة اللجنة العليا العربية التي تشكلت بسبب الأحوال من الفصائل الفلسطينية المختلفة، وقد تصالحت. قمع المحتل البريطاني هذا الإضراب بقسوة، وزاد من العقوبات الجماعية. علاوة على ذلك سمح الإضراب لـ (يشوف) وهو اسم (المؤسسة) اليهودية في فلسطين بالعبرية أن تدمج موجة جديدة من المهاجرين بحسب مبادئ اقتصاد يهودي قائم على الاكتفاء الذاتي.

فى تشرين الأول/ أكتوبر 1936 مات ألف من العرب (مقابل ثمانين يهوديًا وسبعة وثلاثين بريطانيًا) ومثل هذه الحصيلة الثقيلة أحيت من جديد الانقسام داخل اللجنة العربية العليا التي علقت الإضراب العام. هكذا انتهى الاحتجاج المدني، ولكن تشكلت لأول مرة ميليشيات تبنت الكوفية التقليدية للفلاحين الفلسطينيين علامةً على الانضمام. أسرعت بريطانيا بإرسال دعم عسكري مكون من 20000 جندي في مواجهة 20000 من المتمردين.

أدى نشر خريطة في لندن في تموز/ يوليو 1937 إلى تقسيم فلسطين بين دولة يهودية ودولة عربية إلى إعادة إطلاق الانتفاضة. حشدت قوة الانتداب عددًا من قدامى المحاربين الذين شاركوا ضد الانتفاضة في أيرلندا، وجندت آلافًا من المعاونين اليهود. ناسبت هذه الاختيارات الإستراتيجية الحركة الصهيونية، في حين إن المقاومة العربية تستنفد نفسها في معارك محلية في مواجهة عدو متفوق في السلاح والتنظيم.

خلال ثلاث سنوات من (الثورة العربية) تم تصفية النخبة الوطنية بالإعدام أو السجن أو النفي، كما تم قتل أو جرح حوالى 2 بالمئة من السكان في فلسطين العربية. صحيح أن الكتاب الأبيض

الذي أصدرته لندن عام 1939 تراجع عن فكرة التقسيم ووضع سقفًا صارمًا للهجرة اليهودية خلال السنوات الخمس المقبلة، ووعد باستقلال البلاد خلال عشر سنوات، والواقع أن العرب بوصفهم حركة وطنية من المحتمل أن يكونوا قد فقدوا أصلًا فلسطين حتى قبل بداية الحرب العالمية الثانية.

الجامعة العربية وإسرائيل

في القاهرة في آذار/ مارس 1945 أُسِّست الجامعة العربية بين مصر وسورية ولبنان والعراق والأردن والعربية السعودية واليمن. من بين الأعضاء المؤسسين لهذه (الجامعة العربية) فقط العربية السعودية واليمن لم تتعرضا إلى الخضوع إلى الاستعمار. أدى الصراع العالمي إلى زيادة التحكم البريطاني على مصر والأردن والعراق، أما في ما يخص فرنسا فقد استمرت في احتلال سورية ولبنان عسكريًا على الرغم من استقلالهما الشكلي في عام 1943.

في 8 أيار/ مايو 1945 وهو يوم استسلام ألمانيا خرجت تظاهرات وطنية في مدينة سطيف الجزائرية، قبل أن تمتد إلى جلما باتجاه الغرب. استمر القمع ذو القسوة الشديدة أكثر من أسبوعين مخلفًا وراءه أكثر من ألف ضحية من الجزائريين. ما إن عاد الهدوء إلى (المحافظات) الفرنسية في الجزائر حتى دخلت سورية بدورها إلى دائرة العنف.

قام الجيش الفرنسي في 29 أيار/ مايو 1945 بقصف برلمان دمشق، وكذلك عددًا من المباني العامة. كانت الاضطرابات دموية في حماة وحمص وحلب. لم تتوقف التدخلات الفرنسية إلا بعد تدخل قوي من تشرشل، وأطلق شارل ديغول غاضبًا إلى السفير البريطاني:

«لقد أهنت فرنسا وخنت الغرب»[19]. وحين لا يكون لدى رمز فرنسا الحرة كلمة لصالح العرب فإن ذلك يبين كثيرًا عن الهوة التي تفصل من الآن فصاعدًا بين النخب في الشعبين كليهما.

يمكن لفرنسا أن تمارس الذبح كما يحلو لها في الجزائر، لكنها في سورية خاضعة إلى حكم منظمة الأمم المتحدة التي عقد مؤتمرها التأسيسي في سان فرانسيسكو في وسط أزمة دمشق. وهذا لم يجعل ديغول أكثر رأفة تجاه هذا (الشيء)؛ الكلمة التي أطلقها في ما بعد على الأمم المتحدة. في نيسان/ أبريل 1946 رحلت القوات الفرنسية الأخيرة من سورية وتم الجلاء عن لبنان في آب/ أغسطس.

في فلسطين سلمت بريطانيا العظمى بفشل خبرتها الانتدابية وطلبت من الأمم المتحدة أن تحسم مستقبل الأراضي. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1947 تبنت الجمعية العامة في الأمم المتحدة قرارًا بثلاثة وثلاثين صوتًا مقابل ثلاثة عشر (وعشرة ممتنعين) لخريطة تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية وتدويل منطقة القدس. رفض العرب هذا التقسيم سواء من حيث المبدأ (كما حدث عام 1937)، أم لأنه يعطي الدولة اليهودية أكثر من نصف الأراضي (وأفضلها).

وافقت الحركة الصهيونية على الخريطة باستثناء الجماعتين المتطرفتين إرغون وشترن. وسرعان ما انطلقت الحرب الأهلية اليهودية - العربية، وحاول (يشوف) خشية أن يحدث هولوكوست جديد أن يضمن بأي ثمن اتصالات في الأراضي بين مناطق الاستيطان المختلفة. تفاوض عبد الله ملك الأردن سرًا مع القادة الصهاينة على تقسيم فلسطين بحيث يستحوذ على الأراضي المخصصة للدولة

---

(19) Charles DE GAULLE, Le Salut (1944-46), Plon, Paris, p.194

العربية. في آذار/ مارس – نيسان/ أبريل 1948 تلاشت المقاومة الفلسطينية وهو ما أدى إلى نزوح جماعات بأكملها من السكان.

في 15 أيار/ مايو 1948 أعلنت بريطانيا رسميًا نهاية انتدابها على فلسطين. كانت الدولة اليهودية إسرائيل قد أعلنت في اليوم السابق لأن 15 أيار/ مايو كان يوم سبت. تحركت الجيوش العربية ولكن دون تنسيق بين بعضها. علاوة على ذلك، كانت أهداف الحرب لدى القوات الأردنية والقوات المصرية غير متوافقة؛ (تسوية "في الميدان" مع الصهاينة بالنسبة للأول انتصار عسكري بالنسبة للثاني)، زاد ضلوع وحدات تطوعية ولا سيما من الإخوان المسلمين من الاضطراب داخل المعسكر العربي.

في كانون الثاني/ يناير 1949 انتهت الحرب بانتصار ساحق لإسرائيل التي تمددت على 77 بالمئة من فلسطين الواقعة تحت الانتداب، وألحقت الأردن 22 بالمئة (الضفة الغربية والقدس الشرقية) ومن هذه الوحدة بين الضفتين نشأت المملكة الأردنية الهاشمية. أفلت فقط من توسع بعضها وإلحاق بعضها الآخر (قطاع غزة)؛ أي 1 بالمئة من فلسطين الأصلية، وعليه سوف يتجمع ربع السكان العرب في البلد.

وهكذا كانت النكبة التي تعني الكارثة بالنسبة لعرب فلسطين، أولئك الذين كانوا يمثلون ثلثي السكان على الأرض في عام 1948 أي حوالى 1⁄3 مليون، سيصبحون من الآن فصاعدًا مقسمين إلى أربع فئات: 160000 بقوا في إسرائيل 80000 سكان أصليون في قطاع غزة، 300000 سكان أردنيون في القدس الشرقية والضفة الغربية، وعلى الأقل 750000 لاجئون منتشرون في قطاع غزة والأردن وسورية ولبنان وحتى في ما وراء ذلك. (هذان الرقمان الأخيران محل سجال حاد).

وقعت الدول العربية مع إسرائيل اتفاقيات هدنة التي لا تعني اعترافًا، ولكنها ترفض أن تسمح بتمثيل مستقل للفلسطينيين. والجامعة العربية، البعيدة عن أن تعكس تطلعات مخلصة للوحدة العربية، هي الحقل المغلق لمؤامرات الأنظمة كي تضمن لنفسها تفوقًا نسبيًا. الإجماع الوحيد الذي ظهر كان هو الوحيد المتاح ومن هنا جاء احتواء المسألة الفلسطينية وإبقاء الحال على ما هو عليه بالنسبة لإسرائيل.

اختفى الفلسطينيون من مقدمة مشهد صراع هم أول ضحاياه. ومن شعب يتطلع أن يصبح سيدًا على أرضه، تحولوا إلى محض لاجئين تتكفل بهم مؤسسات خاصة بالأمم المتحدة UNRWA (وكالة الأمم المتحدة للمساعدة والأعمال). الجنسية (الأردنية) التي منحتها المملكة الهاشمية إلى جزء منهم لا تمثل إلا عزاءً محدودًا عن هذا الوطن البديل. ومن لم يترك الأرض التي ولد عليها استوعبتهم إسرائيل، يعيشون تحت إدارة عسكرية مواطنين من الدرجة الثانية.

دعم الإخوان المسلمون الأردنيون ضم الضفة الغربية بوساطة الملك عبد الله وكسبوا مقابل ذلك تسهيلات غير مسبوقة في المملكة الهاشمية. في مصر على العكس اتهم الإخوان المسلمون الملك فاروق بخيانة فلسطين، في قلب شعور بإهانة وطنية في مواجهة إسرائيل. في كانون الأول/ ديسمبر 1948 قام مسلح إسلامي باغتيال رئيس الوزراء، وانتقمت قوات الأمن بعد ذلك بقليل باغتيال حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وقائدها. الحركة الإسلامية الخاضعة للقمع أصبح لها (شهيدها).

الجلاء عن شمالي أفريقيا

وقعت الولايات الليبية الثلاث تحت احتلال الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية، يتحكم البريطانيون في طرابلس وبرقة بينما يدير الفرنسيون فزان؛ مهد كتيبة مارشال لوكلير الثانية للمدرعات. في 1949 اعترفت لندن بإدريس السنوسي أميرًا مستقلًا على برقة. وأشرفت الأمم المتحدة على مسار انتهى في عام 1951 باتحاد طرابلس وبرقة وفزان في إطار مملكة فدرالية يقودها إدريس.

ثلاثة نُظُم ملكية عربية نجحت هكذا، في ما بين 1932 و1951، في صياغة نمط كل مرة مبتكر في بناء الدولة: التوسع العائلي من نمط سعود، المؤسس على أيديولوجيا الدولة (والقتال) وهي الوهابية؛ التكريس الهاشمي، أولًا تحت حماية استعمارية في شرق الأردن تم بتركيب بين صفقات وصراعات مع إسرائيل، وهو ما أنتج الأردن الحديثة؛ وأخيرًا الشرعية المعادية للفاشية للسنوسية في برقة التي سمحت لهم بضم الولايتين الأخريين في ليبيا المستقلة.

العائلة المالكة العلوية ويطلق عليها أيضا (الشريفة)- نظرًا إلى سلالتها النبيلة - على رأس السلطة على المغرب منذ القرن السابع عشر، تقدم صيغة أخرى مختلفة. التمييز قديم بين مغربين؛ المخزن (السلطة) والسيبة (الانشقاق). وجود الريف في أرض الانشقاق يفسر بصورة كبيرة التواطؤ السلبي للسلطان في أثناء القضاء على جمهورية عبد الكريم في 1925-1926 بوساطة الجنود الفرنسيين والإسبان.

المخزن المعاصر على الرغم من ذلك ليس ثمرة ميراث، ولكن تهجين بين استبداد تقليدي لدولة ضعيفة ونزعة تدخلية إدارية

للمستعمر الفرنسي. هذا المخزن (الفرانكو- مغربي) سوف يكتسب شرعيته الوطنية في الأزمة المفتوحة بسبب عزل السلطان محمد في آب/ أغسطس 1953 الذي تم ترحيله إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر. ثورة الملك والشعب التي هزت المغرب في أثناء العامين التاليين وصلت إلى ذروتها عند العودة المنتصرة للسلطان في كانون الأول/ ديسمبر 1955.

العمى الاستعماري لفرنسا قدم فرصة رائعة للعائلة المالكة المغربية؛ فرصة رائعة لرد الاعتبار الوطني. لقد أصبحت هي النظام الملكي الوحيد الذي استمر بعد الاستقلال على خلاف مصر وتونس والعراق. يعين شهرا آذار/ مارس ونيسان/ أبريل 1956 نهاية الحماية الفرنسية والإسبانية على المغرب وكذلك إلغاء (تدويل) طنجة. أصبح السلطان محمد الخامس بعد ذلك في تماهي فعال بين العرش والأمة والشعب. هذا المسار يتسم بالدوام لدرجة أن المغرب لم تتأثر بالنهضة إلا سطحيًا.

في تونس القطب الكبير للنهضة العربية، على العكس، حزب الدستور الجديد للحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف هو الذي يقود النضال من أجل الاستقلال، ليس من دون التشهير بتواطؤات الباي مع الحامي الفرنسي. ولكن في خريف 1955 واجه الزعيمان الوطنيان كل منهما الآخر حول مسألة (الحكم الذاتي الداخلي) الذي قبله بورقيبة ورفضه بن يوسف المؤيد لاستقلال نضالي وليس تفاوضي.

أنتجت الاشتباكات بين البورقيبيين و(اليوسفيين) في بضعة أشهر عددًا من الموتى أكثر من سنوات الحركة ضد الفرنسيين. استخدم بورقيبة ضد خصومه الحجج نفسها التي استخدمها في أعوام

1934–1937 ضد الدستور (القديم)، متهمًا إياهم بأنهم إسلاميون رجعيون أو عروبيون ضعيفو الارتباط بالهوية التونسية. ظنون بعض أو بعضهم الآخر لا تهم من الآن فصاعدًا أكثر من المواجهة الحامية من أجل السلطة بين الرفاق الوطنيين القدايي.

بورقيبة يستخدم الأوراق كلها لصالحه، فهو بالنسبة إلى النخب الفرانكفونية بطل نموذج التنمية على الطريقة الأوروبية، ولكنه ينظم عملية الاحتفاء به على أنه (المجاهد الأكبر) معلنًا أنه أبو الجهاد من أجل تحرير تونس. اضطر بن يوسف إلى المنفى وتم تحييد أنصاره. في آذار/ مارس 1956 بلغت تونس الاستقلال وأصبح بورقيبة رئيس الوزراء لدى الأمين باي.

في الجزائر، النضال من أجل التحرير الذي أطلقته في تشرين الثاني/ نوفمبر 1954 جبهة التحرير الوطني هو أيضًا جهاد، في خط القتال نفسه الذي قاده عام 1832 حتى عام 1847 الأمير عبد القادر. يتعلق الأمر بثورة تهدف إلى دفع القوة الاستعمارية إلى سياستها القمعية من أجل زعزعة أسطورة (الجزائر فرنسية). بهذا المعنى فإن العقوبات الجماعية وتحويل التعذيب إلى أمر شائع بوساطة السلطة الفرنسية ساعد على تقدم قضية جبهة التحرير.

دينامية التحرير قضت في النهاية على كل أمل في (الطريق الثالث) حتى لا يبقى بديل بين السيادة الجزائرية والاندماج الاستعماري. التصاعد العسكري بعيدًا عن أن يؤكد هذا الاختيار الثاني أدى بالضرورة إلى تفريغه من معناه، ولم يترك أي طريق مفتوح سوى الطريق الوطني. علينا ألا نُخدَع لقد كسبت فرنسا عسكريًا الحرب في الجزائر، ولكن هذا النصر بالسلاح هو الذي وقع نهاية (الجزائر الفرنسية).

يضاف إلى ذلك شروط شارل ديغول للعودة إلى السلطة في أيار/

مايو 1958 بوساطة انقلاب الجزائر* الذي أدى إلى الجمهورية الخامسة. الانقلاب الذي أُجهض في نيسان/ أبريل 1961 والصعود القوي لمنظمة الجيش السري (OAS) تبين خطر تهديد من النمط الفاشي. لم يكن ديغول يأسف للتخلص من الجزائر من أجل إنقاذ فرنسا. من هنا كانت لامبالاته السيادية بعد اتفاقات إطلاق النار في إيفيان في آذار/ مارس 1962، بالنسبة (للأحذية السوداء)**، والحركيين*** الذين تركهم وراءه.

الحكومات المتوالية للجزائر المستقلة لم تتوقف عن التذكير (بالمليون شهيد) في الحرب. هذه الخرافة ليس لها أساس، مثلها مثل خرافة (75000) معدمين بإطلاق الرصاص التي زعمها الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1945. من 1954 إلى 1962 نتج عن حرب الجزائر بحسب الأبحاث التي يعتد بها 250000 ضحية جزائرية، أربع أخماسها كان بسبب القوات الفرنسية والباقي بسبب منظمة التحرير نتيجة لعمليات التطهير الداخلية، والقضاء على (المتعاونين)[20]؛ نحو 2,5 بالمئة من الجزائر بين المسلمين تم قتلهم في أثناء الصراع وهي نسبة أعلى بخمسة أضعاف من فرنسيياالجزائر[21].

الأغلبية الكبرى من هؤلاء الفرنسيين في الجزائر غادرت البلاد في عام 1961–1962، والباقون أعقبوا ذلك تدريجيًا حتى عام

* انقلاب أجرته القوات العسكرية الفرنسية الموجودة في الجزائر معلنة تمردها على قيادة الجيش الموجودة في فرنسا. (مترجم).

** المستوطنون الفرنسيون في الجزائر من عشرات السنين.

***الجزائريون المتعاونون مع قوات الاحتلال الفرنسي.

(20) Guy PERVILLE, « La Guerre d'Algérie : combien de morts ? », in Mohammed HARBI et Benjamin STORA (dir.), La Guerre d'Algérie, Pluriel, Paris, 2004, p.713.

(21) Ibid.,p.715.

1965. الظاهرة على الرغم من أنها كانت ليست كثيرة العدد، كانت ملموسة في تونس والمغرب. من جهة أخرى زاد الجلاء عن شمالي أفريقيا، مع إنشاء دولة إسرائيل، من هشاشة وضع الطوائف اليهودية في العالم العربي. ترحيل يهود اليمن إلى إسرائيل تم تنظيمه منذ 1949-1950. ثم بعد ذلك جاءت العراق ومصر التى أخليت من سكانها اليهود قبل أن يأتي دور الجزائر وتونس والمغرب.

العالم العربى الذي يصل في النهاية إلى الاستقلال هو بصورة ملحوظ أقل تنوعًا من قبل قرن من الزمان. السكان الأوروبيون حتى وإن استوطنوا في المغرب اختاروا الرحيل مع المستعمر الفرنسي، ودفعت الطوائف اليونانية والأرمنية الثمن غاليًا في مصر بسبب الصراعات بين القاهرة ولندن. أما فيما يخص عالم السفارديم فإن رسوخه المتعدد الطوائف لم يحمه من تبعات الصراع العربي الإسرائيلي والنضال من أجل التحرر. استقلال الدول في ما وراء المحن المرتبطة بالسعي إليه اقترن إذًا بفقد جوهر المجتمعات العربية، الذي كان أكثر تجانسًا، وأقل حساسية للاختلاف.

تمثل حرب الجزائر المشهد الأكثر فظاعة في هذا النصف قرن من الاستقلال العربي. بعد نهاية المئة واثنان وثلاثين سنة من (الجزائر الفرنسية)، كل الترقيات العربية إلى السيادة تنبع من انقضاء العهد الكولونيالي أكثر من حملة للتحرير، بل هي تندرج في الخطة التي وضعتها لندن للتخلص تدريجيًا من حضورها شرق السويس.

في حزيران/ يونيو 1961 أصبحت الكويت مستقلة وقُبلت في الجامعة العربية ضد رغبة العراق التي تحتج على السيادة الكاملة للإمارة. حلت قوات عربية محل القوة البريطانية في الكويت لردع بغداد من أي تدخل. بعد ذلك بعامين قبلت العراق مؤخرًا أن ترفع

اعتراضها الذي أدى إلى نهاية فيتو الاتحاد السوفياتي وقبول الكويت في الأمم المتحدة.

انسحبت بريطانيا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1967 من الكيانين الموجودين جنوبي اليمن واللذين يسميان اتحاد جنوب الجزيرة العربية (حول ميناء عدن) وحماية جنوب شبه الجزيرة (الذي يشمل تقريبًا ولاية حضرموت). جمعت جبهة تحرير وطني هذين الجزأين في جمهورية ذات رسالة تقدمية، انتقلت في كانون الأول/ ديسمبر 1970 إلى المدار السوفياتي بوصفها جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية. بعد ذلك بأشهر استقلت البحرين أخيرًا، ثم قطر ثم الإمارات العربية المتحدة ثم عمان عن الوصاية البريطانية. ودخلت الأمم المتحدة بوصفها دول ذات سيادة.

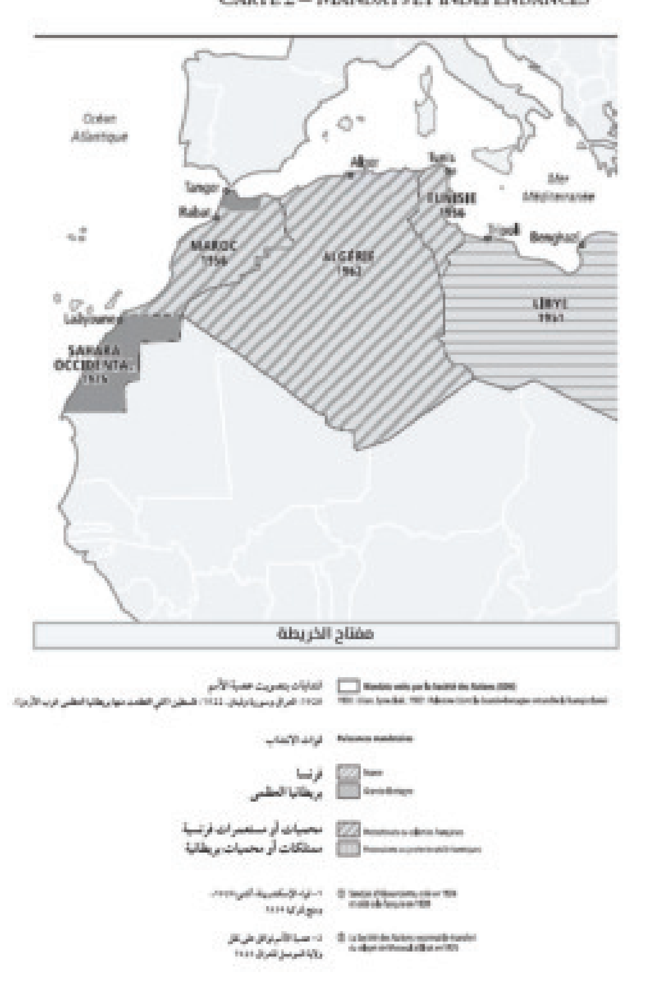
يوجد مع ذلك أرض عربية ما زالت تعاني من أجل استقلالها هي فلسطين، حتى في الجامعة العربية لا تمثلها سوى (منظمة تحرير). (المسألة) الفلسطينية هي أيضًا (قضية) وكلمة قضية في العربية تجمع هذين المفهومين في الفرنسية. دوام هذه المسألة يذكر بصورة قاسية بعدم قدرة الدول الجديدة العربية على أن تفرض نفسها في مواجهة دولة إسرائيل التي هي بالكاد أقل قدمًا منها. فلسطين وقد اعتبرت (قضية) العرب المركزية سوف تستخدم ذريعة للاختطاف الكبير لاستقلالهم بوساطة الطغم الديكتاتورية.

خريطة 2

انتدابات واستقلال في العالم العربي



Carte 2 – Mandats et indépendances



4

عشرون عامًا من الانقلابات

(1949-1969)

الاختطاف الكبير

قام العرب في مصر عام 1919 بحملة مبهرة من العصيان المدني، قبل أن يقوم غاندي بوقت طويل بالدعوة إلى هذا الشكل من التعبئة في مواجهة الإمبراطورية البريطانية. عرف العرب أنفسهم بصور مختلفة في القاهرة أو بيروت أو دمشق عقودًا من الحياة البرلمانية والتعددية الحزبية والصحافية النشيطة. الإشارة إلى ماضٍ على الرغم من أنه ليس بعيدًا يستثير اليوم الريبة من فرط ما ارتبطت صورة العالم العربي مقترنة بالعنف والتعسف.

كيف يمكن أن نفسر هذا الانقلاب الرهيب وهذا الإنكار للتاريخ؟ ينبغي أن نعود إلى إضفاء السمة العسكرية والنزعة الراديكالية تحت ضغط الكفاح ضد الاستعمار. ولكن المأساة الفلسطينية هي التي عجلت بالتحول من النخب الداعية إلى الاستقلال إلى العسكريين الطموحين الوطنيين في الغالب، ودائمًا بلا رحمة. علاوة على ذلك (الحرب الباردة) الحقيقية التي استقطبت العالم العربي بين مصر الناصرية والعربية السعودية قامت بتحطيم التأليف بين القومية والإسلامية التي كانت في قلب النهضة.

العنف الذي تعرض له العرب بسبب هذا الاختطاف غير مفهوم للمراقبين المعاصرين، لأن الوقت حينذاك كان مفتوحًا للسرديات

الكبرى العالم ثالثية، التشبيه الشنيع لناصر بهتلر أو العنصرية التي أطلقتها حرب الجزائر جعلت مثقفين كثيرين على الرغم من أنهم تقدميون، يظنون أنهم مضطرون إلى تبرير ما لا يقبل التبرير حتى لا يفاقموا من الاتهامات الموجهة إلى العرب. ولهذا ينبغي فك خصلة الخيوط المربكة من المؤامرات والانقلابات كي نكون عادلين مع المناضلين العرب من أجل الحرية، وهم المنسيون الحقيقيون من التاريخ.

مصنع الأعداء

القوى الاستعمارية التي تزعزع وضعها بسبب النجاح النسبي (للثورة) السلمية في مصر في عام 1919 صممت على ألا تعود لمواجهة مثل هذا التحدي مرة أخرى. هذا الصلف الإمبريالي لم يترك بعد ذلك أمام المحتجين سوى طريق واحد ضيق بين الخضوع والعصيان. لم يردع المحتلون خطر نشوب الانتفاضات العنيفة، بل على العكس، كانوا يصلون في نهاية المطاف إلى سحقها في العراق 1920 وسوريا في 1926 وليبيا 1931 وفلسطين في 1939.

هذا المرور الإجباري إلى المواجهة المسلحة لم تكن كلفته عالية بالنسبة للسكان العرب فحسب، لكنه أثر بعمق على ديناميتهم السياسية. إن تعبأة مواطنيه على غرار ما عرفته مصر في عام 1919 كان يسهل انبثاق شروط التعددية، ومؤسسًا على الانخراط الطوعي وحتى الالتزام النقدي. في المقابل تحبذ الانتفاضات المسلحة بُنى هيراركية من النوع الهرمي والقهري مستنسخ من نموذج سلاسل القيادة العسكرية.

يبين التاريخ باستفاضة أن كل كفاح مسلح من أجل التحرير

يتضمن بعدًا من الحرب الأهلية، ولا يمثل العرب استثناء: القوة الاستعمارية تستخدم بالفعل في خدمتها قوى تابعة قاسية يتم تجنيدهم محليًا ويكون على المقاومة تحييدهم؛ وبصورة أوسع القلة المقاتلة تجتهد لتبني ميزان قوى في المجتمع المقهور، وهو ما يمر عبر القضاء على (المتعاونين) و(المرشدين) مع صور الإفراط كلها المقترنة بهذه الحملة من التصفية.

علاوة على ذلك، الاحتجاج على النخب التقليدية المتهمة بالتواطؤ مع المحتل يؤدي إلى انبثاق أشكال (حديثة) أوعزت بها الفعالية الرهيبة للنموذج اللينيني في جمعه بين رئيس ذي زعامة وحزب منضبط ومنظمات جماهيرية ذات ديمقراطية زائفة. مثل هذه البنيات نجدها بدرجات مختلفة في مصر لدى الإخوان المسلمين عام 1928 وفي تونس في الدستور الجديد عام 1934، أو في سورية مع حزب البعث الداعي (للاشتراكية العربية) ذات الملامح المبهمة عام 1947.

هذه الطلائع -كما تطلق على نفسها- تندرج في قطيعة مع الممارسة البرلمانية والمنطق التعددي للنخب التي تُتهم بأنها (فاسدة)، سواء أكانت إسلامية أم قومية. هذه الأقليات تتصرف وهي تتبنى لحسابها الإدانة التي أطلقها الاتحاد السوفياتى ضد الحريات (البرجوازية) التي يُحتفى بها في الغرب. وكون القوى الاستعمارية تنسب نفسها إلى هذا (العالم الحر) فهذا يزيد من عدم صدقية القيم السياسية المرتبطة به.

هذه الأحزاب الحديثة مهما شاركت في الانتخابات، فإنها تشكل أفرعًا مسلحة منظمة سرًّا لهدف انقلابي. المزايدة بين الإسلاميين والقوميين ثم بين الاتجاهات المختلفة من المعسكر القومي ستصبح قريبًا التهديد الأساسي الذي يلقي بثقله على الدول الهشة التي ولدت

بعد الاستقلال. علاوة على ذلك، سوف توظف هذه الأقليات الفاعلة فضيحة اغتصاب الأراضي الفلسطينية كي تروج لبرنامجها السياسي الخاص.

موجة الصدمة الفلسطينية

الدول المؤسسة للجامعة العربية، باستثناء اليمن المنغلق على ذاته، شاركت في أول حرب ضد إسرائيل في 1948-1949 وذاقت هزيمة قاسية. العراق والمملكة العربية السعودية ليستا معنيتين بالهدنة الموقع عليها مع إسرائيل من جانب الدول الأربع المحيطة التي وضعت الإقليم في وضع لاسلم- لاحرب، غير المستقر بنيويًا. يتعلق الأمر بوضع موقت في أفق غير محدد في انتظار حل مفترض لمسألة اللاجئين الفلسطينيين مؤسس على (حق العودة) الذي وضعه العرب شرطًا قطعيًا للاعتراف بإسرائيل.

كل جانب يتمسك بالفعل بقرار ذي قيمة مكافئة، تم تبنيه من الجمعية العامة للأمم المتحدة وبينهما فاصل زمني مدته عام. قرار 181 في تشرين الثاني/ نوفمبر 1947 يقسم فلسطين بين دولة يهودية ودولة عربية، جعلت منه إسرائيل أساس شرعيتها، وتؤكد في الرفض العربي عدم الرغبة في السلام. القرار 194 الذي صدر بعد ذلك بعام في المقر نفسه، «يقرر أنه يمكن السماح للاجئين الذين يرغبون في العودة إلى منازلهم بأسرع ما يمكن والعيش في سلام مع جيرانهم وينبغي دفع تعويضات لمن يقررون عدم العودة»[22].

وضعت الدول العربية نفسها في وضع صعب: فهي تطلب من

(22) Article 10 de la résolution 194/3, adoptée le 11 décembre 1948 par l'Assemblée générale des Nations unies.

الآن فصاعدًا من منظمة الأمم المتحدة تطبيق خارطة التقسيم التي رفضتها في أثناء التصويت عليها، واقتضاؤها تنفيذ (حق العودة) للاجئين الفلسطينيين بحسب ما ورد في القرار 194 يعاني غياب أي تمثيل فلسطيني مستقل، وهو نفسه نتيجة لإجماع عربي سلبي يهدف إلى المحافظة على مصالح كل دولة في علاقاتها الخاصة بإسرائيل. الأردن الضالعة في ترتيبات سرية مع إسرائيل، ولبنان الذي ما زال تحميه فرنسا بهمة عند حدودها الجنوبية، مستقر في وضع بين السلم والحرب.

سورية ومصر أكثر هشاشة بصورة أخرى. في آذار/ مارس 1949 قام قائد الجيش حسني الزعيم بانقلاب على رئيس الجمهورية. حدث الانقلاب من دون إراقة دماء، وهذه أول مرة يخرج فيها جيش عربي عن حياديته الشكلية ليستولي مباشرة على السلطة - التدخلات العسكرية العراقية السابقة لم تعارض يومًا الملكية الدستورية في بغداد. هذا الانقلاب تبعه بأشهر عدة انقلابان آخران في دمشق، وهذه المرة أكثر دموية. حافظ الجنرال أديب الشيشكلي زعيم سورية الجديدة في البدء على الأشكال المؤسسية، قبل أن يقيم ديكتاتورية عسكرية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1951 مع المنع السريع للأحزاب السياسية كلها.

في مصر بضع عشرات من (الضباط الأحرار) مصدومون بسبب إهانة حرب فلسطين تآمروا على نظام الملك فاروق. جمال عبد الناصر، العضو القديم في الإخوان المسلمين، هو أحد أعمدة المجموعة ولكنه يترك لرفيقه أنور السادات القيام بالتفاوض سرًا لضم أنصار الإمام (الشهيد) حسن البنا. النتيجة: استولى الضباط الأحرار على السلطة في تموز/ يوليو 1952، مع الدعم النشيط للإخوان المسلمين. تم إيقاف جميع الجنرالات ما عدا اثنين؛ من بينهما محمد نجيب المفضل

لدى الإسلاميين. في دمشق حيا الشيشكلي هذا الانقلاب وسافر بعدها بقليل بزيارة رسمية إلى القاهرة. في حزيران/ يونيو 1953 تم إعلان الجمهورية في مصر ورئيسها محمد نجيب. ولكن (الضباط الأحرار) في غمار الأحداث أعلنوا حل الأحزاب السياسية.

في تموز/ يوليو 1953 انتخب الشيشكلي رئيسًا لسورية بنسبة 99٫7 بالمئة من الأصوات. هي تمثيلية تذكر بـالاستفتاء الذي نظمته بريطانيا لإضفاء الشرعية على إقامة حكم فيصل على عرش العراق. خنق المستبدون العسكريون الممارسة الدستورية ذات الانتخابات التعددية، إلا إنهم أيضًا يحتاجون إلى تفصيل (شرعية انتخابية) بحسب المقاس، فعادوا إلى حيل القوى الانتدابية التي فرضت في عام 1921 حاكمًا أجنبيًا على عرش العراق.

هذه الاستفتاءات الرئاسية لا تعلمنا شيئًا عن الشعبية الحقيقية لقائد البلاد، في حين إنها تبين عن (تحديث) انتخابي في نمط إضفاء الشرعية على السلطة المطلقة. هذه الانتخابات المعروف نتيجتها سلفًا ليست إذًا فعلًا من أفعال الإرادة السياسية لكنها إثبات للخضوع الجمعي. مثل هذه الدراما الديكتاتورية لم تسمح مع ذلك للجنرال الشيشكلي باحتواء انتفاضة عسكرية في شباط/ فبراير 1954. الانقلابيون الذين لم يظهر بينهم أي قائد اختاروا العودة للنظام البرلماني في سورية.

قرر ناصر ألا يترك تهديدًا مماثلًا ينمو في مصر. في آذار/ مارس 1954 إضفاء الشرعية على الأحزاب السياسية الذي اقتضاه نجيب حاربه المعسكر الناصري عبر محاولات اغتيال (مجهولة) وتظاهرات بشعارات صريحة (لا أحزاب، لا برلمان، لا انتخابات). نجيب تخلى، وناصر حصل ليس فقط على حل الأحزاب ولكن أيضًا على حل النقابات والحركات الطلابية. في تشرين الأول/ أكتوبر

1954 محاولة لاغتيال عبد الناصر، واحتمال كبير أن تكون تمثيلية، استخدمت ذريعة لحملة اعتقال واسعة ضد الإخوان المسلمين الذين فُكِّك تنظيمهم.

أقيل نجيب من مناصبه وأودع في إقامة جبرية طوال ثمانية عشر عامًا لاحقًا. في 1956 الدستور الذي حمل ناصر إلى رئاسة الجمهورية تمت الموافقة عليه بنسبة 99,9 بالمئة من الأصوات. زعيم مصر رجل سياسي حويط لا يترك شرعية سلطته تقوم على استفتاء فقط. في الشهر الآتي يعلن تأميم قناة السويس في خطاب هو الأشهر يجمع فيه بين الإشارات إلى فلسطين وتمجيد العظمة المصرية: «الفقر ليس عيبًا إنما العيب هو استغلال الشعوب، نستعيد حقوقنا كاملة لأن هذه الأموال أموالنا والقناة هي ملك مصر. [...] لا توجد في مصر أي سيادة سوى سيادة شعب مصر، شعب واحد يتقدم في اتجاه البناء والتصنيع، كتلة واحدة ضد المعتدين ومؤامرات الإمبريالية»[23].

ينبغي أن نتخيل ملايين العرب في مصر وخارجها وقد تجمعوا حول المذياع الترانزستور، هذا الخطاب الذي تنقله على الهواء إذاعة صوت العرب إذاعة الدولة المصرية. التأثير هائل حتى شمال أفريقيا، ودفع بفرنسا، المقتنعة أن جبهة التحرير الجزائرية هي صنيعة ناصر، إلى أن تلحق بإسرائيل وبريطانيا العظمى مباشرة في مؤامرة سرية ضد ناصر.

انطلقت أزمة السويس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1956. الهجوم المنسق بين إسرائيل وفرنسا وبريطانيا كان مدمرًا للجيش المصري، ولكن الولايات المتحدة تحت حكم أيزنهاور تحركت ضد هذا العدوان: أجبرت أولًا حلفاءها الأوروبيين على الجلاء عن منطقة

(23) Cité in Marc FERRO, Suez, Complexe, Bruxelles, 1982, p.120-121.

القناة، وبعدها أجبرت إسرائيل على الانسحاب من سيناء المصرية ومن قطاع غزة، وناصر على الرغم من هزيمته العسكرية خرج مكللًا من المحنة على أنه صلاح الدين الحديث.

البعث السوري باسم حلم الوحدة العربية ألقى بنفسه بين ذراعي ناصر في شباط/ فبراير 1958، واندمج البلدان في الجمهورية العربية المتحدة وعلمها ذو النجمتين ترمزان إلى مصر وسورية، حل محل علم الاستقلال السوري ذو النجوم الثلاث. ولكن (الاتحاد) عبر عن نفسه (في الواقع بهيمنة الضباط المصريين على إقليم الشمال) (الاسم الرسمي لسورية في الجمهورية العربية المتحدة). لم يخطئ العسكريون العراقيون، فبعد أن تخلصوا من الملكية في تموز/ يوليو 1958 رفضوا الانصياع إلى النداءات المصرية.

في إقليمي الجمهورية العربية المتحدة يجري القهر تحت إشراف الاستخبارات سواء النابعة من المؤسسة العسكرية أم مرتبطة عضويًا بالحزب الواحد. تظل جماعة الإخوان المسلمين مستهدفة بوجه خاص، ومن هنا كان رحيل الآلاف من كوادرها ومناضليها إلى المملكة العربية السعودية. قدمت المملكة الوهابية لهم إضافة إلى اللجوء السياسي فرصة في الاستثمار في المؤسسات التعليمية الجديدة والتأطير (الإسلامي) للبلاد.

وهكذا فالانقلابان في سورية ومصر كانا مرتبطين بالزلزال الإسرائيلي - الفلسطيني الذى حبس النهضة في زقاق مميت: إما (القومية العربية) ذات الديكتاتورية العسكرية التي تنكر التعددية السياسية وتحتفي بالجماهير ليكثروا من تبجيل الرئيس أو (الإسلام السياسي) في الشكل الذي يأخذه من خلط بين الوهابية السعودية والإخوان المسلمين الذين ازدادوا تطرفًا في المنفى.

أصبحنا بعيدين عن الحوار الخصب بين القومية والإسلامية الذي

روى النهضة العربية في القرن التاسع عشر: كان السوري عبد الرحمن الكواكبي يدعو في آن إلى (الديمقراطية الدستورية) والعودة إلى خلافة عربية على هذه القاعدة الديمقراطية، وكذلك إلى فصل ما هو سياسي عما هو ديني: كان المصري محمد عبده يمكنه آنذاك أن يلهم رواد القومية المصرية وفي الوقت نفسه مؤسس الإخوان المسلمين. بالفعل، إغلاق الأفق الديمقراطي هو الذي أدى إلى استقطاب المواجهة بين (القومية العربية) و(الإسلام السياسي).

من بورقيبة إلى بومدين

على الخلاف من الزعيم والشيشيكلي أو ناصر الذين يستولون على السلطة بعد الاستقلال في بلادهم، كان صعود بورقيبة مرتبطًا بصورة وثيقة بنضاله من أجل استقلال تونس، لكنه استحوذ على هذا الاستقلال كي يضعه في خدمة مجده الشخصي. لقد رأينا كيف استخدم بورقيبة ضد بن يوسف في 1955 الأسلحة والحجج نفسها التي استخدمت ضد الدستور (القديم) قبل ذلك بعقدين من الزمان. بعد تصفية اليوسفيين لاحق بورقيبة خصمه بانتقامه حتى اغتياله في آب/ أغسطس 1961 في فرانكفورت.

عصف (المجاهد الأكبر) بأعمال جميعة تأسيس الدستور التي كانت تتجه نحو ملكية برلمانية. في تموز/ يوليو 1957 قاد حملة عنيفة ضد البايات، وحصل على إعلان الجمهورية وأصبح أول رئيس. وكان يلزم له أيضًا سنتين من المناورات قبل أن يحصل على دستور على المقاس ليفرض رئاسة من دون وزن مقابل حقيقي لها.

ارتكب بورقيبة أسوأ خطأ في حياته السياسية حينما انطلق في تموز/ يوليو 1961، في مواجهة حاسمة ليجبر فرنسا على الجلاء

قبل الأوان عن قاعدة بنزرت. بالنسبة إلى ديغول في قلب الصراع العنيد على الجزائر مسألة غير واردة أن يظهر أي علامة ضعف. أطلق بورقيبة جيشه في معركة خاسرة سلفًا، حيث قتل على الأقل 600 تونسي مقابل 20 فرنسي.

إهانة بنزرت غذت مؤامرة ضلع فيها من هم من معسكر بورقيبة. كشفت المؤامرة في كانون الأول/ ديسمبر 1962 وتم إعدام عشرة انقلابيين: خمسة عسكريين وخمسة مدنيين وتم دفنهم في مكان سري. وفي أعقاب ذلك عمل بورقيبة على إضعاف الجيش بصورة دائمة لصالح وزارة الداخلية. عزا هذا النظام بعدًا بوليسيًا واضحًا في اتجاه معاكس للرتب العسكرية الكبرى في أشباهه من النظم العربية. في المقابل، التداخل التونسي بين الحزب الواحد والاستخبارات يشبه الوضع السائد لدى الديكتاتوريات العربية الأخرى.

حينما وصلت الجزائر المجاورة إلى الاستقلال في تموز/ يوليو 1962 قتل ثلاثة من المؤسسين التسعة في أثناء حرب التحرير، والستة الباقون كلهم أعضاء في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA)، خمسة منهم حتى آذار/ مارس 1962 في السجون الفرنسية التي تحرروا منها تطبيقًا لاتفاقات إيفيان. أكثرهم طموحًا من بينهم، أحمد بن بيلا، قرر التحالف مع العقيد هواري بومدين الذي يقود من مدينة وجده جيش الحدود الموجود في المغرب وفي تونس.

الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تستند إلى المقاومة الداخلية التي تركت بلا حيوية بسبب القمع الفرنسي واتحاد جبهة التحرير بفرنسا. يمكن لبن بيلا وبومدين أن يعتمدا على قوات (الحدود) الطازجة التي سوف تصبح بعد ذلك الجيش الشعبي الوطني

(APN). منظور الاستحواز على ممتلكات (الأقدام السوداء) الراحلين وتصفية الحسابات مع المتعاونين القدامى زاد من عدد المنضمين في اللحظة الأخيرة.

في أيلول/ سبتمبر 1962 دخل الجيش الشعبي الوطني إلى الجزائر العاصمة بعد أن قضى على الأقل على ألف من خصومه، ولا سيما من بين سكان قسنطينة، حيث كانت الغارة بقيادة الشاذلي بن جديد مساعد بومدين. اختفت الحكومة المؤقتة حينئذ لصالح (مكتب سياسي) جديد لجبهة التحرير، أصبح بن بيلا رئيسًا للحكومة وبومدين وزيرًا للدفاع. انتقل الخمسة الآخرون المؤسسون لنواة جبهة التحرير جميعًا إلى المعارضة سواء من المنفى أو في إقليم القبائل حيث أُطْلِقت حرب عصابات.

فى أيلول/ سبتمبر 1963 انتخب بن بيلا بنسبة 99٫6 بالمئة من الأصوات رئيسًا للجمهورية الديمقراطية الشعبية الجزائرية، وهي وظيفة جمعها إلى جانب قيادته لجبهة التحرير ورئاسة الحكومة. منتشيًا بهذه القوة الكبرى الشكلية كلها، أطلق بعد ذلك بقليل (حرب الرمال) ضد المغرب المجاور الذي خلف فيه الحسن الثاني محمد الخامس. وعلى الرغم من وجود المستشارين المصريين إلى جانب الجيش الجزائري دار الصراع في صالح المغاربة، الأكثر دراية بالمعارك في الوسط الصحراوي.

صعد التوتر في داخل الجيش الجزائري في حزيران/ يونيو 1965 وتحركت مدرعات بومدين في العاصمة. لم يفهم السكان سوى متأخرًا أن الأمر يتعلق بانقلاب، لأن التنقلاب كان يحدث في أثناء تصوير فيلم المخرج غيلو بونتوكورڤو (معركة الجزائر)، الذي يعيد مشاهد أزمة 1957، مع مجموعات من الكومبارس ومركبات

من الجيش الشعبي الوطني. هذا الخلط بين الخيال والواقع سمح لبومدين أن يقلل من العنف وأن يفرض (حركة الإصلاح).

جمع بومدين بدوره بين رئاسة مجلس الثورة (اللجنة التنفيذية) ورئاسة الحكومة ووزارة الدفاع. جبهة التحرير بعد تكريسها حزبًا وحيدًا أصبحت تحت سيطرة (مجموعة وجده) أو هكذا أطلق على العصبة المكونة حول بومدين في المغرب منذ فترة جيش الحدود. عبد العزيز بوتفليقة الذي كان في وجده السكرتير الخاص لبومدين أصبح وزير الخارجية الراسخ.

طاهر زبيري رئيس الأركان شارك بنشاط في انقلاب حزيران/ يونيو 1965 (هو الذي اعتقل بن بيلا) على الرغم من أنه ليس عضوًا في (جماعة وجده)، حاول القيام بانقلابه الخاص في كانون الأول/ ديسمبر 1967 ولكن تم تحييده سريعًا، وألغى بومدين وقتها وظيفة رئيس الأركان التي أدمجها في وزارة الدفاع التي يتولاها، وأصبح يعتمد أكثر فأكثر على الأمن العسكري الذي تم إعداد كوادره في المدرسة السوفياتية وتتولى فيه مكاتب الأمن والوقاية تأطير السكان.

الأمن العسكري في الجزائر والاستخبارات الحربية في مصر وسورية سلطة هذه الخدمات (الأمنية) تتمدد في ظل الديكتاتورية المسماة تقدمية. مصطلح (استخبارات) يصبح من الآن فصاعدًا يثير القلق العام في البلاد العربية: يعرف الفرد أنه يمكن أن ينسحق سريعًا إذا سقط في أيدي هذه الأجهزة القمعية. والسكان المعنيون الذين تبقى السخرية ملجأهم الأخير، يعيدون تدوير النكت التي تمت صياغتها في الاتحاد السوفياتي تحت وطأة استخبارات KGB مطبقين إياها على بوليسهم السياسي.

منها هذه النكتة التي سمعت في مصر وسورية عن رجل عادي

مزنوق أمام رجل مثل لوح الثلج في أتوبيس مزدحم. وبصوت خافت سأل الرجل الهزيل الرجل الضخم إذا كان عضوًا في المخابرات، ثم إذا كان بها أحد من عائلته أو معارفه أو جيرانه، ولكن عندما أجابه متذمرًا بعصبية في كل مرة لا، الراكب تجرأ أخيرًا على أن يقول: ((إذًا، طالما لست عضوًا في الاستخبارات ولا أحد من أسرتك ولا معارفك، أرجوك كف عن الدهس على قدمي))[24].

(الحرب الباردة العربية)

الاستقطاب بين (القومية العربية) و(الإسلام السياسي) تحول إلى ((حرب باردة عربية))[25] حقيقية بطلاها هما ناصر من جانب وفيصل ملك السعودية من جانب آخر. أصبح فيصل بن عبد العزيز ملكًا على السعودية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1964، مستبعدًا من العرش أخاه الملك سعود الذي كان قد انتزع منه صلاحيات عدة خلال السنوات السالفات. أدين سعود بسبب حياته اللاهية وإدارته المشوشة وأصبح مجبرًا على النفي (ومن جهة أخرى اقترب من ناصر الذي رحب به في القاهرة).

منذ الانقلاب على الملكية في العراق في تموز/ يوليو 1958 أصبح الملك حسين في الأردن هو الهاشمي الوحيد الذي ما زال في السلطة. نسيت العربية السعودية الصراعات التي وضعت لوقت

(24) أصل هذه النكتة حيث نجد KGB بدل الاستخبارات موجودة في:

Antoine et Philippe MEYER, Le communisme est il soluble dans l'alcool,Seuil,Paris,1978,p.120

(25) التعبير صار شائعًا بفضل المؤرخ الأمريكي:

Malcolm H. KERR, The Arab cold War. Gamal Abdal Nasir and his Rivales, 1958-1970 Oxford University Press, New York, 1965,

طويل الأسرتين الحاكمتين في تعارض، ومنحت الأردن الهاشمية دعمها النشط. هذا الحلف بين المملكتين تم تقويته بكون الإخوان المسلمين لهم وجود ملحوظ في عمان كما في الرياض، حيث وجد آلاف الإسلاميين الذين أفلتوا من القمع في مصر وسورية ملجأ.

دعم الأردن والعربية السعودية الانقلاب السوري هو الذي وضع في تشرين الأول/ أكتوبر 1961 نهاية للجمهورية العربية المتحدة. كانت (الهيمنة المصرية) قاسية جدًا في (الإقليم الشمالي)، لدرجة أن أكثر المتحمسين للوحدة العربية كانوا يتحفظون في الدفاع عن الجمهورية العربية المتحدة. العلم السوري وجد النجوم الثلاث التي كانت تميز علم الاستقلال الوطني، ولكن الهزيمة الناصرية فتحت الطريق لدعاة آخرين (للقومية العربية)، مناضلي حزب البعث.

شكلت جماعة من ضباط حزب البعث المعارضين للجمهورية العربية المتحدة من تشرين الأول/ أكتوبر 1959 (اللجنة العسكرية) التي كانت بالطبع سرية. هم يلومون بمرارة القيادة المدنية لحزبهم بالتبعية العمياء لناصر. محمد عمران، وصلاح جديد وحافظ الأسد، المتآمرون الثلاثة الأساسيون، كلهم من الأقلية العلوية. كانوا قلقين أن يجدوا خلف النزعة الناصرية المنتصرة، الخطاب التقليدي للهيمنة السنية - كان تمثيل التيارات الأقلية في الإسلام ومسيحيي الشرق عاليًا في داخل حزب البعث وفي التشكيلات الماركسية المعارضة لناصر.

العسكريون البعثيون بدؤوا التنفيذ في آذار/ مارس 1963 واستولوا على السلطة في دمشق. العلم ذو النجمتين للجمهورية العربية المتحدة عاد، ولكن للاحتجاج على احتكار ناصر للقومية العربية وأطلق

الإخوان المسلمون في حماة عام 1964، تمردات قُمِعت بلا رحمة.

القادة المدنيون للبعث تكتلوا خلف عمران لإدانة الانحراف (اليساري) لرفاق المؤامرة. ولكن جديد وأسد باغتا خصومهما: في شباط/ فبراير 1966 باحتلال المقر الرئاسي بوساطة المتمردين، ومن ثم اعتقال عمران، وشهدت القوات المسلحة تطهيرها الرابع خلال ثلاث سنوات. هذا الجانب السوري (للحرب الباردة العربية) انتهت فيه المباراة بالتعادل بين مصر والسعودية. لأن جديد – الأسد له أولوياته الخاصة غير القابلة للاختزال للاختيارات المتعارضة لناصر أو فيصل.

في أيار/ مايو 1964 شكل ناصر تحت إشرافه منظمة التحرير الفلسطينية (OLP) وأعطى رئاستها لأحمد الشقيري، السفير السابق للملكة العربية السعودية في الأمم المتحدة، ثم بعد ذلك ارتبط بمصر. تحرك فيصل وشجع ياسر عرفات ومنظمته (فتح) التي تدعو إلى القتال المسلح للفدائيين، وهي تعني المستعدين للموت من أجل دينهم ووطنهم. في كانون الثاني/ يناير 1965 نفذت فتح أول عملية لها في شمال إسرائيل، فانطلقت دعاية ناصر حينئذ ضد عرفات وفدائييه المتهمين بأنهم إخوان مسلمون وينفذون مخطط (الإمبريالية).

أدت (الحرب الباردة العربية) بصورة مفارقة إلى رؤية الفلسطينيين الذين كانوا قد اختفوا من المشهد السياسي منذ 1949، ولكن الاستخدام الأدائي للخصومة بين منظمة التحرير الفلسطينية وفتح بوساطة مصر والسعودية منع القضية الفلسطينية من أن تتحرر من المواجهات بين العرب والعرب. وبالعكس، مركزية هذه القضية منعت كل واحد من الأبطال العرب أن يتطلع إلى الاستحواذ عليها كاملة.

حينذاك في اليمن، أي في محيط العالم العربي، كان الاصطدام بين ناصر وفيصل هو الأكثر عنفًا. عبد الله السلال، ضابط مقرب من مصر يستولي على السلطة ويعلن الجمهورية في صنعاء في أيلول/ سبتمبر 1962 بعد موت الإمام أحمد بقليل. ولكن بدر ابنه وولي العهد أفلت من الانقلابيين ولجأ إلى العربية السعودية، ومنها شجّع تمردًا مناصرًا للملكية، دفع السادات إلى تدخل مصر في اليمن كنوع من الانتقام لمساندة السعوديين للانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة.

أرسل ناصر سريعًا فيلقًا من 13000 جندي، ثم وصلت القوة بعد ذلك إلى 70000 جندي: كانت مقاومة القبائل الملكية عنيدة، وكانت الجمهورية لا تسيطر سوى على نصف البلاد، ومنها ميناء الحديدة الذي تصل منه الإمدادات والدعم من مصر. زيارة ناصر إلى صنعاء عام 1964 كانت مصحوبة بتبني دستور منسوخ من النموذج المصري، في حين إن السلال الذي رقى نفسه إلى رتبة مشير ركّز قيادة الحزب في يديه إلى جانب الدولة والحكومة والقوات المسلحة.

ديكتاتورية السلال أثارت توترات خطرة داخل المعسكر الجمهوري أيضًا، على الرغم من ذلك رفض عبد الناصر تعديل دعمه غير المشروط لربيبه اليمني. جاء وفد جمهوري ليشكو إلى ناصر في أيلول/ سبتمبر 1966، فحُبِس. وتبنت القوات المصرية في اليمن سياسة الهرب إلى الأمام، ولجأَت أكثر فأكثر إلى الأسلحة الكيماوية (ولا سيما في أثناء مجزرة لمئات من الأشخاص في كيتاف، في كانون الأول/ يناير 1967).

ولأن ناصر كان مشغولًا بمواجهته مع فيصل لم ير التوتر مع إسرائيل إلا من زاوية الدعاية والمزايدات بين العرب. تعددت

الحوادث على الحدود السورية بسبب عمليات التسلل المتكررة لفتح، ودان البعثيون في السلطة في دمشق سلبية مصر. ويعلم ناصر أن ثلث جيشه موجود في اليمن، لكنه بدأ يخاطر بكل شيء في 1967 مقتضيًا انسحاب قوات الأمم المتحدة الموجودة بين مصر وإسرائيل، ثم إعلانه إغلاق خليج العقبة (ومن ثم الميناء الإسرائيلي إيلات).

هذا الإغلاق هو في حد ذاته إعلان حرب. ويضيف ناصر في هذا الوضع العسكري: ((اليهود يهددوننا بالحرب، نقول لهم أهلًا بالحرب، نحن مستعدون))[26]. الملك حسين ملك الأردن وقع على اتفاق دفاع في القاهرة مشابه لتلك التي تربط أصلًا مصر بسورية، بل إنه أعطى قيادة الجيش الأردني لجنرال مصري. وناصر المقتنع أنه قد انتصر في الحرب الباردة العربية يستمتع بانتصاره على فيصل.

في 5 حزيران/ يونيو 1967 أخذت إسرائيل المصممة على كسر الحصار العربى المبادرة في الهجوم ودمرت على الأرض الطائرات المصرية. في أثناء (حرب الأيام الستة) هذه احتُل قطاع غزة وسيناء المصرية للمرة الثانية – الأولى كانت في أثناء أزمة السويس 1956– 1957.

الجيش الأردني طُرِد من القدس الشرقية والضفة الغربية في حين إن نظام حزب البعث فضل التخلي عن هضبة الجولان من أجل احتواء الاضطرابات المحتملة في دمشق.

ناصر غير القادر على قبول هزيمته اتهم الولايات المتحدة بالمشاركة بصورة مباشرة في العدوان الإسرائيلي، وأطلق موجة من العنف معادية للأميركان في العالم العربي كله. بعد نكبة 1948 ها هو

(26) Cité in Henry LAURENS ; La Question de Palestine ; L’accomplissement des prophéties (1947-1967) ; Paris. Fayard ; 2007 ; p. 709des

زمن النكسة بالنسبة للفلسطينيين موجات جديدة من المهاجرين تعبر نهر الأردن، ومجمل أراضي فلسطين الواقعة تحت الانتداب أدمجتها إسرائيل أو احتلتها بجيوشها. المسجد الأقصى في القدس؛ المزار المقدس الثالث في الإسلام بعد مكة والمدينة، أصبح تحت سيطرة الدولة العبرية.

(حرب الأيام الستة) تم كسبها بفضل الأسلحة الفرنسية المزودة بها إسرائيل بكثرة. على الرغم من المقاطعة التي قررتها فرنسا في بداية الحرب، صرح ديغول بإرسال تموين سري لقطع الغيار الضرورية للطيران الإسرائيلي. ومع ذلك روجت الدعاية الصهيونية لأسطورة فرنسا التي خانت إسرائيل في قلب المحنة. هذه الحكاية الكاذبة تسمح في المقابل بتبجيل التحالف الذي يزداد قوة تدريجيًا بين الولايات المتحدة و(الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط)، في منطق مستمد من الحرب الباردة تكون فيه البلاد العربية متماهية مع الإمبراطورية السوفياتية.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، بعد السجالات العنيفة، تبنى مجلس الأمن قرارًا رقم 424 نص باللغة الفرنسية على انسحاب إسرائيل من الأراضي التى احتلتها خلال الصراع الأخير. ولكن النسخة الإنكليزية التي لها القيمة التشريعية نفسها تنص على «الانسحاب من أراض احتلتها». غياب أداة التعريف يفتح الطريق إلى انسحاب جزئي. بعد ذلك بأيام صرح ديغول أن دولة إسرائيل «تنظم على الأرض التي استولت عليها الاحتلال الذي لا يمكن أن يتم دون قهر وقمع وطرد، وسوف تكون هناك مقاومة ضدها سوف تصفها بدورها على أنها إرهاب»[27].

(27) Conférence de presse du président Charles De Gaulle au palais del'Élysée, le27novembre1967

القادة والرأي العام العربي الذين ما زالوا تحت صدمة النكبة احتفوا بتفهم وليس بتضامن بالرئيس الفرنسي. نُسي ديغول مرتكب مجازر سطيف وقصف دمشق بالقنابل فيعام 1945. وكما إنه تمت تحية أيزنهاور لاقتضائه إيقاف العدوان الثلاثي الإسرائيلي – الفرنسي – البريطاني ضد مصر في عام 1956، عُدّ ديغول القائد الغربي الوحيد الجدير بالاحترام بين العرب. أسطورة ديغول (صديق العرب) هي أيضًا زائفة مثلها مثل (خيانته إسرائيل) في حزيران/ يونيو 1967. ولكن بناء الأساطير الجماعية يتم بهذا الثمن.

وكما توقع ديغول نشأت نزعة قومية فلسطينية ذات بسالة غير مسبوقة على أنقاض الناصرية. في آذار/ مارس 1968 قاوم فدائيو فلسطين بمساندة الجيش الأردني بصلابة غارة إسرائيلية في وادي نهر الأردن؛ موقع المعركة اسمه الكرامة، لا يلزم أكثر من ذلك كي تكون رسالة (الثورة) الفلسطينية هي إنقاذ الشرف العربي. وليس أمام ناصر سوى الانحناء أمام هذه الموجة الكبرى في شباط/ فبراير 1969. تولى عرفات ومجموعات الفدائيين قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. بعد ذلك بأشهر فرض على الدولة اللبنانية أن تقبل على أرضها تحكيم مصر: (اتفاقات القاهرة) هذه التي بقيت سرية أعطت منظمة التحرير الفلسطينية امتيازات غير عادية في معسكرات اللاجئين وعلى حدود إسرائيل. هذه بداية (فتح لاند) وحكم الميلشيات الفلسطينية في جنوب لبنان.

أخيرًا سحب ناصر قواته من اليمن في أثناء القمة العربية في الخرطوم في آب/ أغسطس 1967. هذا التخلي المصري بدلًا من أن يضعف المعسكر الجمهور منحه شرعية جديدة وطنية، ولا سيما وأن السلال أقيل في أثناء زيارة له لبغداد. هكذا تحرر الجمهوريون اليمنيون من الحماية المصرية ومن ديكتاتورية السلال، وتمكنوا تحطيم الحصار

المفروض بوساطة القوى الملكية في صنعاء. هذه المقاومة البطولية هي الملحمة المؤسسة للجمهورية العربية اليمـنية التي اعترف بها في نهاية المطاف الملك فيصل. الإمام بـدر الذي يشعر بالخزي لكنه عاجز ترك آنذاك العربية السعودية واختار منفاه في بريطانيا العظمى.

تلميذ ليبي لعبد الناصر أغلق في أيلول/ سبتمبر 1969 هذه الدائرة المكونة من عشرين عامًا من الانقلابات العسكرية، معمر القذافي يعدّ نفسه أول (الضباط الأحرار). مثل ناصر عام 1952 انقلب على الملك الموجود (إدريس كان حينئذ في سفر بالخارج، ولكن اعتقل ولي العهد)، وأصبح على رأس مجلس قيادة الثورة الذي أعلن الجمهورية، وقد اعترف القذافي في ما بعد أنه اختار السلك العسكري بدلًا من الوظيفة المدنية من أجل أن يستولي يومًا على السلطة بالقوة.

هذه الصراحة الانقلابية تبين جيدًا نهاية حلقة من الزعيم إلى ناصر مرورًا ببومدين؛ اختيار السلاح كان وسيلة بالتأكيد سريعة ولكن ليست غاية في حد ذاتها. هناك إرادة لا شك فيها للانتقام الاجتماعي في تصفية إرث النخبة القومية بوساطة هؤلاء العسكريين القادمين من البرجوازية الصغيرة أو الفلاحين الفقراء. هذه التصفية لم تستغرق سوى صيفًا واحدًا في الجزائر المستنزفة بوساطة فرنسا. وامتدت إلى سنتين في مصر 1952–1954، ولكن يلزم خمسة عشر عامًا (من بينهم ثلاثة أعوام من الاحتلال المصري) حتى يتم القضاء على التراث البرلماني في سورية.

تتابع الانقلابات العسكرية وفظاعة الصراع على السلطة أدى إلى عملية انتخاب داروينية حقيقية لصالح الأشد تصلبًا من المدبرين لها، القادر على القضاء على رفاق الحياة وعلى اتهام الثوريين الأصلاء بأسوأ المؤامرات. هكذا دعم ناصر وبومدين والأسد والقذافي سلطتهم

المطلقة، في منطق هو في آن احتكاري (الاستحواذ على موارد البلاد) وأبوي (معاملة الشعب معاملة الأطفال) والذي يستدعى من وقت لآخر من أجل التصديق عبر الاستفتاءات.

حصيلة هذه العصب العسكرية في حقل المعركة فادحة، وعلاوة على الهزيمة أمام إسرائيل في 1948، و1956، و1967 دفع بالجيش المصري إلى اليمن، والجيش الجزائري خسر بالفعل (معركة الرمال) أمام المغرب. ولكن هذه الجيوش المهزومة خارجيًا هي بلا رحمة أمام المعارضة الداخلية، التي في مواجهتها لا تتردد في أن تتصرف وكأنها قوات احتلال (الجيش الشعبي الوطني في قسنطينة عام 1962) وفي إقليم القبائل (عام 1963)، والجيش السوري في حماة (عام 1964). ووصل الجيش العراقي قمة العنف في قمع انتفاضة الموصل (عام 1959) أو في مطالب الأكراد (ابتداء من أيلول/ سبتمبر 1961)، ومع مدد من الهدوء حتى (آذار/ مارس 1970).

كل شكل من المعارضة الداخلية حتى وإن كانت مخلصة يتم تشبيهها بالطابور الخامس، وبأدوات في يد الإمبرياليين. هذه الشيطنة مقرونة بعسكرة السيطرة السياسية (باستثناء تونس المخلصة لبعدها البوليسي) مع تعاون وثيق بين الاستخبارات والحزب الوحد، كما في الاتحاد السوفياتي الستاليني. الاستخبارات لها مع ذلك الكلمة الأخيرة في مواجهة الآلة الحزبية – الأفضل على سبيل المثال أن يكون المرء مسؤولًا في الأمن العسكري بدلًا من جبهة التحرير في جزائر بومدين، حتى في ما يخص الإثراء الشخصي.

هذه الثقافة في التعسف وهذا التعميم للعنف يقضي على السياسة من جذورها؛ ففي مصر وسورية إسلاميون وشيوعيون اتُهموا جميعهم بأنهم (عملاء للصهيونية). في الجزائر كل نقد يُدرَج في

التهديدات الغامضة بــ (حزب فرنسا)، أسطوري وشائع الوجود في آن معًا. في كل مكان، الاختطاف الكبير للاستقلالات العربية الذي تم بالانقلابات العسكرية من 1949 حتى 1969 أدى إلى تراجع ثقافي مأسوي.

تمت خيانة النهضة العربية بوساطة القوى الاستعمارية في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن الاستقلالات التي تم الحصول عليها تدريجيًا ليست إلا تحريرًا خادعًا، لأن هناك عُصبًا ديكتاتورية حرمت الشعوب من ثمرة كفاحها. في اليوم التالي للنكسة عام 1967 بدا أن العرب قد فقدوا اتجاه نضالهم من أجل التحرر.

5

من كارثة إلى أخرى

(1970-1991)

جيل التخلي

الثورة الفلسطينية التي تقودها منظمة التحرير الفلسطينية وفدائيوها بدأت وكأنها الطريق الوحيد الممكن لانفتاح الأفق السياسي العربي. متطوعون من الجنسيات كلها تدفقوا إلى الأردن حيث أقامت الفصائل الفلسطينية معسكرات التدريب وقواعد العمليات الخاصة بها، لتلتهم يومًا بعد يوم جزءًا من سيادة المملكة الهاشمية. مناضلو أقصى اليسار في أوروبا كثيرون: جمع جان غينيه عنهم مادة درامية نشرت بعد موته: (الأسير العاشق)، وأخرج جان لوك غودار فيلم (حتى النصر) (الذي عرض بعد ذلك تحت عنوان "هنا وهناك").

أشاع عرفات مفهوم التوريط، ويعني حرفيًا معناه الفعال في التدريب والانخراط. يتعلق الأمر بالفعل بالنسبة للمقاومة الفلسطينية ضعيفة العتاد أن تجذب في صراعها مع إسرائيل جيشًا عربيًا أو أكثر كي تكسر الوضع القائم في دينامية ثورية. التصعيد الذي أدى إلى (حرب الأيام الستة) هو مثال توضيحي مفارق وناجح على التوريط، فتسرب الفدائيين قد جعل سورية ضالعة في الصراع التي جذبت وقتها مصر حتى الانفجار الإقليمي.

الرومانتيكية الثورية التي يسبح فيها المناضلون الفلسطينيون

وحلفاؤهم، بتأثير من الإشارة الزاعقة لفيتنام كانت تمنعهم من تقدير خطر مثل هذا (التوريط). وقع عرفات في الفخ الذي نصبه حينما طبق عليه جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بدوره مبدأ التوريط. في أيلول/ سبتمبر 1970 اختطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرات ركاب في مطار في شرق الأردن وصرح حبش أن: ((المقاومة مستعدة أن تجعل من الشرق الأوسط جحيمًا))[28].

سرعان ما انطلق الجحيم في أثناء (سبتمبر الأسود)، فقد ورط حبش وجبهته الشعبية عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية في مواجهة خاسرة مع الجيش الأردني. الإخوان المسلمون وهم في غالبيتهم فلسطينيون يرفضون أن ينحازوا إلى أحد الطرفين، حتى من هو أشدهم نضالًا عبد الله عزام. الأمل الوحيد لمنظمة التحرير الفلسطينية يكمن في تدخل الجيش السوري إلى جانبهم. دفع صلاح جديد مدرعاته لتخطي الحدود في حين إن الأسد رفض تغطيتها جويًا، حينئذ تم قذف المدرعات السورية بالطائرات الأردنية التي أوقفت تقدمها.

فرض ناصر في النهاية وقف إطلاق النار على حسين وعلى عرفات ولكن الرئيس المصري المجهد بسبب الأزمة الأردنية سقط ميتًا. موت عبد الناصر يحدد نهاية عصر. خليفته أنور السادات أطلق انفتاحات سرية تجاه الولايات المتحدة حتى منذ جنازة الرئيس. هرب الفدائيون الفلسطينيون من الأردن تاركين خلفهم آلافًا من الموتى. ولم يكن مرحبًا بهم في سورية التي تولى فيها الأسد السلطة محل جديد، المتهم بأنه ضحى بالمصلحة الوطنية أمام مزايدات منظمة التحرير. حينذاك لجأ عرفات وأنصاره إلى لبنان.

---

(28) Cité in Olivier CARRÉ, Septembre noir. Refus arabe de la Résistance palestinienne,Complexe,Bruxelles, 1980,p.17

حصاد تشرين الأول/ أكتوبر

صفى السادة الجدد في سورية ومصر إرث سلفيهما (وأطاحوا غرماءهم الأخيرين) تحت شعار (حركة التصحيح) التي أطلقها الأسد في أيلول/ سبتمبر 1970 ثم السادات في تموز/ يوليو 1971. ثورات القصر هذه تُدرج تحت مسار مدته طويلة، افتتحه بومدين ضد بن بيللا عام 1965 بحركة (الإنقاذ) حتى حركة التصحيح (انقلاب آخر جديد)، الذي أطاح في عام 1974 أول رئيس (مدني) في الجمهورية العربية اليمنية لصالح العقيد إبراهيم الحامدي.

في هذه البلاد كلها، يصحح الديكتاتوريون العسكريون الاندفاعات المضادة للإمبريالية للفرق السابقة. صالح السادات مصر مع العربية السعودية في عهد فيصل قبل أن يطرد آلافًا من الخبراء السوفيات في البلاد في تموز/ يوليو 1972، وأصبح اليسار هو الهدف الأول للشرطة السياسية، حيث شجع الانطلاقة الإسلامية في حرم الجامعات من أجل احتواء الاحتجاج التقدمي. في الجزائر، برنامج التعريب المتسارع في التعلم يلجأ إلى أعداد كبيرة من المعلمين القادمين من الشرق الأوسط، وهم في أغلبيتهم إسلاميون.

يعرف السادات والأسد أن تقوية نظاميهما تمر عبر إزالة مهانة 1967. في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1973، يوم الغفران في إسرائيل وأحد أيام رمضان في الإسلام، اقتحمت الجيوش المصرية والسورية الخطوط الإسرائيلية. كانت الصدمة هائلة للدولة العبرية، على الرغم من هجومها المضاد الناجح في سيناء والجولان. السادات الذي عبرت قواته قناة السويس منع جيشه الثالث أن يتقدم أكثر، تاركًا الأسد وحده أمام إسرائيل.

دان ريتشارد نيكسون الرئيس الأميركي لجوء مصر إلى القتال.

في 14 تشرين الأول/ أكتوبر، بتأثير التخبط السوري في الجولان عملت الولايات المتحدة جسرًا جويًّا عسكريًّا مع إسرائيل، ومنحتها مساعدة مالية استثنائية أيضًا. في 16 تشرين الأول/ أكتوبر أقام الجيش الإسرائيلي مقدمة جسر العبور إلى الضفة الغربية لقناة السويس، وتحرك إلى ضواحي دمشق. وكان هذا أكثر ما يحتمل بالنسبة إلى الملك فيصل الذي استخدم للمرة الأولى سلاح الوقود إلى الدرجة التي أحدثت (صدمة بترولية).

في 20 تشرين الأول/ أكتوبر، العربية السعودية التي تابعها سريعًا منتجون عرب آخرون، قررت فرض حصار على نقل الطاقة إلى الولايات المتحدة. كان البترول العربي قد انخفض بنسبة 10 بالمئة مع تهديد بتخفيض 5 بالمئة في الشهر حتى يتم عقد اتفاق مُرضٍ على أساس حدود 1967. ارتفع ثمن البترول أربعة أضعاف في بضعة أسابيع. حتى وإن كانت الولايات المتحدة لا تعتمد سوى على 4 بالمئة من البترول السعودي، وتستهلك من احتياطها القوي، فقد ارتفعت فاتورتها البترولية من 4 مليار دولار في 1972 إلى 241 مليار دولار عام 1974.

استفاد شاه إيران من ارتفاع سعر البترول لكنه رفض هذه المقاطعة العربية التي أفادته كثيرًا. كانت طهران في علاقات وثيقة مع إسرائيل وبهذا تعلي من شأن اختلافها وفي الوقت نفسه تجني أرباحًا طائلة، واستثمر جزءًا منها في طموحه بأن يكون له (رابع أكبر جيش في العالم). في مواجهة عالم عربي تنظر إليه واشنطن على أنه غير مأمون، بل معادٍ، كان النظام الإيراني مستريحًا في دور (شرطي الخليج).

في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1973 قضى مجلس الأمن بالأمم المتحدة بوقف إطلاق النار فورًا، وظلت إسرائيل صماء عن هذا

المطلب، تنوي سحق الجيش الثالث المصري المحاصر في سيناء. لوحت روسيا بالتهديد النووي لإجبار إسرائيل في 24 تشرين الأول/ أكتوبر على الموافقة في نهاية الأمر. دارت الحرب ثمانية عشر يومًا، مدة أطول بثلاث مرات من 1967، وتركت عالمًا غربيًا منقسمًا بشدة بين الولايات المتحدة المتماهية مرة أخرى مع إسرائيل، وأوروبا المعتمدة أكثر على البترول العربي.

انطلق هنري كسينجر وزير الخارجية الأميركي في رحلات مكوكية مجهدة في الإقليم، وحصل في 1974 على اتفاقين للفصل بين القوات، بين إسرائيل ومصر من جانب، وإسرائيل وسورية من جانب آخر. وفرض مبدأ بسيطًا في الشرق الأوسط، لا يمكن للسلاح السوفياتي أن يكسب حربًا، ولا يمكن الوصول إلى أي سلام من دون الإشراف الأميركي. وبفصل مسألة سيناء عن الجولان كسر الجبهة المصرية السورية التي كانت موجودة في خريف 1973.

بوساطة هذه الاتفاقات، على الرغم من أنها محدودة، هدّأ كيسنجر الملك فيصل، وأعاد العلاقة المميزة بين واشنطن والرياض. علاوة على ذلك استبعد الاتحاد السوفياتي من اللعبة الدبلوماسية، وانتقم بذلك في الشرق الأوسط من النكسات التي تعرضت لها الولايات المتحدة في فيتنام، ولكن (العزيز هنري) أقنع إسرائيل أن تنازلات محدودة تسمح لإسرائيل أن تظل محافظة على ما هو أساسي، وأن تعلن للعرب أن هذه محض خطوة أولى باتجاه الحل الشامل. هذه الهدنة – التي أُخرِجت بعناية، تبعدنا عن السلام أكثر مما تقربنا منه.

تقدر منظمة التحرير الفلسطينية مخاطر التهميش التي وضعتها فيها النزعة المتطرفة الموروثة من (أيلول الأسود) الأردني. في حزيران/ يونيو 1974 دشن عرفات مبدأ «سلطة فلسطينية على أي

جزء من الأرض الفلسطينية يتم تحريره))[29]. دانت الجبهة الشعبية هذا التطور نحو وجود مشترك مع إسرائيل وشكلت جبهة فلسطينية للرفض. ولكن منظمة التحرير حصلت على فوائد هذه المرونة غير المسبوقة. صارت مقبولة باسم فلسطين بوصفها عنصرًا كاملًا في القمة العربية في عام 1974 (على الرغم من معارضة الأردن)، وفي الشهر التالي دُعي عرفات إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة.

أصبحت خاتمة خطابه على منصة الأمم المتحدة مشهورة: ((قد جئتكم بغصن الزيتون مع بندقية الثائر، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي، أكرر لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي. الحرب تدفع من فلسطين والسلم يبدأ من فلسطين))[30].عرفات الذي قابل في بيروت وزير الخارجية الفرنسي، حصل بعد ذلك بمدة قصيرة على مكتب إعلامي لمنظمة التحرير في باريس.

دينامية التوريط بتأثير طنطنة ثورية مع ذلك سوف تدمر مرة أخرى ما حققته منظمة التحرير الفلسطينية. يدير عرفات من الآن فصاعدًا (دولة داخل الدولة في لبنان)، واليسار المحلي أكثر ضعفًا من الكتائب اللبنانية وميليشيات أخرى محافظة، يريدون تعبئة منظمة التحرير لصالحهم. انطلقت الحرب الأهلية في نيسان/ أبريل 1975. ولكن عرفات بذل جهدًا كبيرًا لوضع حد لانخراط الفدائيين، ثم كانت المجزرة الكتائبية للمعسكر الفلسطيني في الكرنتينة في كانون الثاني/ يناير 1976 التي أدت في المقابل بوساطة منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها اللبنانيين إلى تصفية القرية المسيحية في دامور.

(29) Programme adopté par le douzième Conseil national palestinien,le« Parlement » de l'OLP, le 9 juin 1974..

(30) Cité in Henry LAURENS, Le Retour des exilés, op. cit., p.1006.

بينما كانت مساعدات إسرائيل للميلشيات المسيحية اللبنانية تزداد كثافة جعلت سوريا الأسد من نفسها حكمًا في الصراع. في أيار/ مايو 1976 تدخل الجيش السوري بناء على طلب الرئيس الماروني اللبناني ضد التحالف (الفلسطيني- التقدمي). أدى حصار المعسكر الفلسطيني في تل الزعتر في شهر آب/ أغسطس وتصفيته إلى هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية. وحددت إسرائيل عند صيدا (خط أحمر) تمنع بعده عبور القوات السورية. وأدى هذا بصورة مفارقة إلى تدعيم فتح لاند في جنوب لبنان، لأنها بعيدة هناك عن جيش الأسد.

لعنة البترول

الصدمة البترولية في 1973-1974 سوف تغير المجتمعات العربية موجهة ضربة كان يمكن أن تكون قاضية لدينامية النهضة. الملكيات البترولية على رأسها العربية السعودية هي بالفعل حاملة لأيديولوجيا ضد النهضة التي تم تدعيمها بالاستقرار في المملكة للإخوان المسلمين الفارين من القمع في مصر وسورية. لم يكن هؤلاء الإسلاميون المنفيون حاملين رؤية البنا، ولكن بالأحرى لفكر أكثر انغلاقًا لسيد قطب، مفكر الإخوان المسلمين تحت حكم ناصر، وشُنق بأمره في آب/ أغسطس 1966.

وهكذا قام محمد قطب شقيق الشهيد سيد بالتدريس في كلية الشريعة في مكة. أسهم الإخوان المسلمون مباشرة في عام 1970 في بلورة مذهب «السياسة التعليمية في العربية السعودية»[31]، واستولوا على المواقع السيادية في الجامعة الإسلامية في المدينة، وفي جامعة الملك عبد العزيز في جدة وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض التي

(31) Stéphane LACROIX, Les Islamistes saoudiens, PUF, Paris, 2010, p.57.

تم بناؤها على التوالي في أعوام 1961، و1967، و1974. كما يحتل الإخوان المسلمون وظائف إستراتيجية في تنظيم نشر المذهب الوهابي، وهو الرابطة الإسلامية العالمية أو الاتحاد العالمي للشباب المسلم (المعروف بالحروف الأولى من اسمه الإنكليزي (AMY). في قطر حيث تتبنى العائلة المالكة هي أيضًا المذهب الوهابي، سمحت (للأخ) يوسف القرضاوي أن يؤسس عام 1973 قسم الدراسات الإسلامية في جامعة الدوحة.

الوفرة المالية الناتجة عن الصدمة البترولية جذبت إلى الخليج ملايينًا من العمال المهاجرين؛ يمثل مصريون، ويمنيون النسبة الكبرى، ولكن العالم العربى كله صار معنيًا. سوف يتبنى هؤلاء النازحون شكلًا من التشدد الإيماني الملائم للمحيط الوهابي. وحين عودتهم إلى بلدهم الأصلي، سيعملون على (استيراد) هذه الممارسات الدينية الجديدة، أمارات على نجاحهم الاجتماعي وعلى ترويجهم الثقافي.

سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أطلقها السادات، وبدرجة أقل الأسد، مهدت الأرض لهذه البرجوازية التقية المتمسكة بإدراج علامات هويتها في المجال العام: أزياء (إسلامية) (هي في الواقع مستوردة من الخليج)، وممارسة معلنة للصلاة (مع تعميم وتضخيم الصوت في المساجد) واحترام صارم لصيام رمضان (مع انزواء المخالفين إلى مجالهم الخاص) وترويج (المعاملات المالية الإسلامية) (مع منع الفائدة على القروض)، إلخ.

من جهة أخرى سمح المنّ البترولي للديكتاتوريين (التقدميين) ليس بأن يبقوا بتكاليف كبرى فقط، ولكن للدفع بالتجريب الاجتماعي حتى حدود المغامرة أيضًا. داومت جزائر بومدين على أن (تأكل بترولها) مع واردات غذائية في تزايد متضاعف، حيث إن

حصيلة النزعة الجماعية في الزراعة كانت كارثية (سياسة الصناعات التصنيعية شهدت أيضًا فشلًا ذريعًا). والقذافي الذي أفلت من أكثر من انقلاب أطلق في آذار/ مارس 1977 سياسة الهرب إلى الأمام مع الجماهيرية، يوتوبيا شمولية تلغي الأحزاب والجمعيات والنقابات.

في مواجهـة هذيان بومدين والقذافي بدت الأشغال الكبرى في البنية التحتية للبعث العراقي أكثر عقلانية نسبيًا. الرئيس أحمد حسن البكر في السلطة منذ تموز/ يوليو 1968 قام بمشروعات شق الطرق السريعة، ومد الكهرباء إلى البلاد كلها وتطوير إرادي للتعليم ولا سيما لدى البنات. صدام حسين نائب البكر وذو قربى بعيدة معه، بدأ يطبع تدريجيًا علامته في هذا الاستبداد الذي يسعى إلى أن يكون (مستنيرًا). البعث العراقي يسعى أيضًا إلى أن يحل محل البعث السوري مرجعيةً (للقومية العربية).

السخاء البترولي له أيضًا تأثيرات مشؤومة على منظمة التحرير الفلسطينية. لم تتمتع أبدًا حركة تحرير بهذا الثراء المالي سواء بسبب دعم الملكيات البترولية أو بتحويلات الفلسطينيين العاملين في بلاد الخليج. ووجد عرفات موارد هائلة للإبقاء على الولاءات والمحسوبيات في الشتات الفلسطيني، ولكنه فقد الاتصال المباشر بالسكان في الأراضي المحتلة، حيث الإخوان المسلمين الذين يقودهم من غزة الشيخ أحمد ياسين يقومون بتنمية شبكاتهم.

فضلت إسرائيل باسم مبدأ (فرق تسد) الاستعماري، الإسلاميين على حساب القوميين في الضفة الغربية وغزة. فبينما كان المحتل يلاحق بلا هوادة المتعاطفين مع منظمة التحرير الفلسطينية ويقضي بدنيًا على الفدائيين، شاركت الحكومة الإسرائيلية في غزة رسميًا في افتتاح مسجد الشيخ ياسين في أيلول/ سبتمبر 1973 وشجعت على وجود الإخوان المسلمين في الجمعيات.

غياب الموارد البترولية المباشرة أو غير المباشرة أثر سلبًا في تطور المغرب وتونس. أفلت الحسن الثاني من محاولتي انقلاب عسكري في تموز/ يوليو 1971 وآب/ أغسطس 1972. بادر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1975 بإطلاق (المسيرة الخضراء) للاحتلال السلمي للصحراء الإسبانية التي كانت مدريد بصدد الجلاء عنها. هذه التعبئة القومية المنظمة بحنكة أفشلت دعم بومدين للميلشيات الصحراوية لجبهة البوليزاريو، وكسب الحسن الثاني شرعية شعبية مشابهة لشرعية أبيه في أعوام 1953–1955، لكنه وضع بلاده في صراع دائم مع الجزائر.

في آذار/ مارس 1975 أصبح بورقيبة (رئيسًا مدى الحياة) بوساطة برلمان تابع له. الحياة السياسية في تونس أصبحت رهينة الحالات المزاجية لرئيس الدولة والنزوات الحكومية؛ يومًا (اشتراكية)، يومًا (ليبرالية) (مستشارون سيئو النية يتم اتهامهم كل مرة بالفشل في هذا الاختيار أو ذاك). نقابة الاتحاد العام التونسي للشغل حاولت أن تخلخل مأزق هذه النزعة التسلطية الطاعنة في السن. في 26 كانون الثاني/ يناير 1978 كان يوم (الخميس الأسود) مع عشرات بل مئات من ضحايا قمع أعمى. هذا المأزق التونسي يبين أن (اللعنة البترولية) التي تتجلى في الجزائر وليبيا المجاورتين، لا تكفي أن تفسر وحدها التراجع الديمقراطي الذي يشهده آنذاك العالم العربي.

التحول في عام 1979

عام 1979 عام حاسم بالنسبة للعالم العربي، حتى وإن كان هذا الحسم في محيطه الإسلامي، حيث يفتتح ويختتم بتطورين عظيمين؛ الثورة الإسلامية في إيران والغزو السوفياتي لأفغانستان في كانون الأول/ ديسمبر.

إطاحة نظام شاه إيران بوساطة آية الله الخميني الذي تم الاحتفاء بعودته إلى طهران بموجات بشرية من ملايين الأشخاص، يمثل بالفعل هزيمة كبيرة لإسرائيل (اقتحم الثوار سفارة الدولة العبرية في إيران وحولوها إلى «سفارة فلسطين» وقدموها إلى ممثل منظمة التحرير الفلسطينية لديهم). جيل من المناضلين العرب الذين كانوا إلى وقت طويل منخرطين في صفوف النزعة القومية بل الماركسية، انضموا حينذاك إلى النزعة الإسلامية أكثر اشتعالًا، ليس بدافع الاعتقاد الديني وإنما بالأحرى بدافع إرادة محو الهزائم الماضية.

على جدران بيروت كانت الملصقات تصور اللقاء بالأحضان بين عرفات والخميني مع شعار (ثورتان في واحدة) في إشارة إلى وحدة المصير المشتركة بين الثورتين الإيرانية والفلسطينية. جانب مهم من مناضلي فتح في لبنان قادم من الطائفة الشيعية، وجد في الانخراط في صفوف ميلشيات منظمة التحرير الفلسطينية مواردًا ومنزلة وترقيًّا.

بعد شهر من الثورة الإيرانية وقع أنور السادات ومناحم بيغين برعاية جيمي كارتر على معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل. رئيس الوزراء الإسرائيلي مؤسس منظمة الإرغون الذي تحول إلى (اليمين) المتطرف لحزب الليكود، رفض أي تنازل حول المسألة الفلسطينية. يتعلق الأمر إذًا بسلام منفصل، يترك يد إسرائيل طليقة في استيطان الضفة الغربية وغزة. بعد شهور عصيبة من المفاوضات الإسرائيلية المصرية رأى كارتر حلمه يتحطم في صلح بين (أبناء إبراهيم).

حصل السادات من جانبه على الاسترداد الكامل لشبه جزيرة سيناء على ثلاث مراحل تمتد على مدار ثلاثة أعوام. كما حصل أيضًا على معونة كبيرة من الولايات المتحدة مقررة على غرار المعونات الهائلة التي تمنحها الولايات المتحدة لإسرائيل. أكثر الجوانب أهمية

هو منح 1,3 مليار دولار للجيش المصري وهي معونة مستمرة حتى اليوم إلى الدرجة التي لا يعدها العسكريون المصريون منحة وإنما حقًا.

وبسبب هذا السلام المنفصل مع إسرائيل، صارت مصر منبوذة في العالم العربي. الجامعة العربية تركت القاهرة وجعلت مقرها في تونس. لم يكن بمقدور سوريا الأسد أن تدعي احتلال المنزلة التي تركتها القاهرة، لأنها مستغرقة في قمع انتفاضات الإخوان المسلمين على أرضها. حينذاك تقدم العراق لاستلام شعلة القومية العربية: في تموز/ يوليو 1979 تولى صدام حسين السلطة كاملة بعد تطهير دموي لقيادة حزب البعث منقول على الهواء مباشرة.

التنافس بين الفرعين السوري والعراقي لحزب البعث يتمحور حول العلاقة مع إيران التي أعلن فيها الخميني (جمهورية إسلامية) التي سرعان ما أصبح لها دستور بملامح ثيوقراطية (مع سلطة للمرجع الأعلى للثورة على المؤسسات المنتخبة كلها). عقد الأسد والخميني حلفًا إستراتيجيًا رسميًا باسم النضال ضد إسرائيل، ولكن في الواقع باسم العداء المشترك لصدام، قمع المستبد العراقي في المقابل الاحتجاجات الشيعية في بلده قمعًا دمويًّا، متهمًا إيران بأنها السبب.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1979 استولى متمردون على الحرم الشريف في مكة. هذا التمرد الذي تم في اليوم الأول من القرن الخامس عشر الهجري يندرج في دينامية أخروية، لأنه يجري تحت قيادة مهدي يعلن عن نهاية العالم. امتد حصار مكة أسبوعين، لم ينكسر إلا بعد تدخل قوات التدخل للشرطة GIGN الفرنسية واستخدامها الغاز الذي يشل الحركة. كان الموتى بالمئات والسلطات السعودية تعلن تصميمها باستمرارها في عشرات الإعدامات العلنية.

وما إن عاد الهدوء إلى مكة حتى غزا الجيش الأحمر أفغانستان في

كانون الأول/ ديسمبر 1979. انتفاضة شعبية هزت البلاد باسم الجهاد. ولكن إدارة كارتر لم تكن تتمنى انتصارًا سريعًا للمتمردين ضد السوفيات وفضلت توريط الاتحاد السوفياتي في صراع طويل المدى. أرادت واشنطن أن تتكبد موسكو ما يعادل إهانة سقوط سايغون، قبل ذلك بأربع سنوات. ولهذا كانت الولايات المتحدة مستعدة أن تقاتل حتى آخر أفغاني.

العربية السعودية رأت أيضًا فائدة كبيرة تأتيها من هذه الحرب بالوكالة. بمساندة المقاومة الأفغانية تصبح هي رأس الحربة في تعبئة (سنية) تسمح لها بمواجهة ثورة إيرانية أصبحت تقترن أكثر فأكثر بالمذهب الشيعي. أما في ما يخص مصر فقد كانت تبلور قضية (إسلامية) لتواجه بها البلاد العربية التي عزلتها. التقى الجواسيس الأميركيون والسعوديون والمصريون في باكستان من أجل تمويل المقاومة الأفغانية وتسليحها بكثافة، لكنهم امتنعوا عن الدخول إلى أفغانستان خوفًا من أن يقعوا في أيدي السوفيات. نادرًا ما تركت ميليشيات حرب العصابات هكذا وحدها من قبل عرابيها الأسخياء.

في هذا السياق، اثنان من المنشقين عن الإخوان المسلمين أرادا دعم الانخراط المسلح التطوعي في أفغانستان. يتعلق الأمر بالفلسطيني عبد الله عزام الذي رأيناه يعارض منظمة التحرير الفلسطينية في أثناء أزمة (أيلول الأسود)، والسعودي أسامة بن لادن واحد من أبناء كثيرين لأحد أساطين أعمال البناء في المملكة الوهابية. أسّسا في عام 1984 في بيشاور غربي أفغانستان (مكتب خدمات) من أجل أن يجذبوا إلى أرض الجهاد الأفغاني المجاهدين المحبطين من فشل النزعة القومية والنزعة الإسلامية في العالم العربي. وهنا أيضًا لا يتعلق الأمر بتحرير أفغانستان بقدر ما يتعلق بإعادة توليد نوع من اليوتوبيا العربية.

في أيلول/ سبتمبر 1980 قرر صدام حسين غزو إيران، كان يظن أن الجمهورية الإسلامية قد ضعفت بسبب توتراتها الداخلية، لكنه في الواقع استثار صحوة قومية حول الخميني. تحول الصراع سريعًا إلى مستنقع؛ فقد دام ثماني سنوات، وأدى إلى موت مئات الآلاف، مفاقمًا من الانقسامات التي كانت أصلًا عميقة بين الأنظمة العربية: سورية، وبقدر أقل ليبيا، لا تخفي تضامنها مع إيران (المعادية للإمبريالية)، بينما اصطفت العربية السعودية والملكيات البترولية خلف صدام حسين.

اغتيل السادات في تشرين الأول/ أكتوبر 1981 في قلب العرض العسكري للاحتفال بذكرى حرب 1973. كانت منظمة جهادية تعارض تمسك الإخوان المسلمين بالعمل الشرعي هي المسؤولة عن الاغتيال. والانتفاضة التي انطلقت في غمار هذه الأحداث في أسيوط بصعيد مصر، سحقها سريعًا حسني مبارك الرئيس الجديد. مناضلون ومتعاطفون قُبِض عليهم بالآلاف، وأحيانًا طُرِدوا بعد سنوات من الاعتقال والتعذيب. حالة أيمن الظواهري، جهادي مصري ذهب إلى بيشاور بعد إطلاق سراحه. قابل بن لادن، وأقنعه أن يقطع صلته بعبد الله عزام، وأن يؤسس منظمته الخاصة واسمها (القاعدة).

فلنترك الصراع الأفغاني لنعود إلى الشرق الأوسط: التحول الذي حدث في عام 1979 عزز من الاتجاهات الاستبدادية للأنظمة العربية التي اهتزت على قواعدها. كان صدام حسين هو أول من تبنى طريقا استبداديًا أصيلًا، وهو الذي أعفاه من جهة أخرى من الاستفتاءات التي يلجأ إليها أقرانه العرب. هذا التحول أدى أيضًا إلى استقطاب طائفي حول الجمهورية الإسلامية (الشيعية) من جانب، والبعث العراقي (السني) من جانب آخر على خلفية حرب بين النظامين.

في هذه المواجهة كان البعث السوري حليفًا للجمهورية الإسلامية

وعدوًا للبعث العراقي. وبذلك بدا الخطاب المفترض أنه علماني للبعث قناعًا يخفي هيمنة أقلية حاكمة في داخل الأقلية الطائفية (سنية في العراق وعلوية في سورية). هذه الأقلية داخل الأقلية تتحكم في أجهزة القمع والدولة – الحزب. سنة العراق وعلويو سورية صاروا هكذا رهائن للعصبة الموجودة في السلطة وصاروا هدفًا لانتقام أغلبية السكان، على الرغم من أنهم مستبعدون مثلهم مثل مواطنيهم من توزيع امتيازات النظام.

أداء «دولة البربرية» هذه، بحسب التعبير الكاشف لميشيل سورا[32]، منقطع الصلة بالدعاية (التقدمية) للنظام. نصوص البعث هي هي في بغداد ودمشق، لكنها تبرر هنا وهناك اختيار إستراتيجية متعارضة تمامًا. يساند صدام الإسلاميين السوريين ضد الأسد، مع قيامه بحرب شاملة ضد الجمهورية الإسلامية في إيران. وعلى العكس، يدعم الأسد الإسلاميين في العراق ضد صدام، على خلفية حلف إستراتيجي بين دمشق وطهران. عندما يقوم أحد حزبي البعث بمساعدة بعضهم في بيروت أو في داخل منظمة التحرير الفلسطينية، فإن الحزب الآخر المنافس يساند بالضرورة الآخرين. اللبنانيون والفلسطينيون الذين سقطوا بسبب إطلاق النار المتبادل بين البعثين عددهم لا يحصى.

من جهة أخرى، الريع الآتي من الوقود بصورة مباشرة أو غير مباشرة تضخم مع الصدمة البترولية الثانية، المرتبطة بالاضطرابات الإيرانية عامي 1978–1979. وتتضاعف من الآن فصاعدًا بالنسبة إلى الديكتاتوريات العربية بريع إستراتيجي مرتبط بموقفهم من إسرائيل. هكذا أصبحت مصر مدعومة من الولايات المتحدة

(32) Michel SEURAT, L'État de barbarie, PUF, Paris, 2012

بالكرم نفسه الذي تلقاه سورية من الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك فإن القوتين الكبيرتين ليستا مغاليتين في اقتضائهما تجاه النظامين الموالين: واشنطن مستعدة لكل شييء من أجل المحافظة على سلام كامب دافيد، وموسكو مقتنعة أن دمشق وحدها تضمن لها تأثيرًا في الإقليم.

جبهة الجولان تتمتع بالهدوء نفسه الذي تتمتع به سيناء؛ الأسد يستثمر (مقاومته) لإسرائيل. ويمكن بذلك أن يذبح في وسط لا مبالاة عامة، جزءًا من السكان السنة في حماة في آذار/ مارس 1982. وفوق أكبر مقبرة جماعية دموية في المدينة الشهيدة يبنى الأسد فندقًا فاخرًا، ومرأبًا واسعًا لحافلات السياح. بين تواطؤ بعضهم وأولويات بعضهم الآخر، بدا أن المستبدين العرب لا يمكن المساس بهم طالما ظلت الشعوب العربية كمية مهملة على رقعة الشطرنج الدولية.

بن جديد وميتران وعرفات

سمحت الوفرة البترولية للنظام الجزائري بانتقال سلس بين بومدين الذي توفي فجأة في كانون الأول/ ديسمبر 1978، وبن جديد الذي انتخب رئيسًا بـ99٫9 بالمئة من الأصوات بعد أربعين يومًا من الحداد الوطني. رئيس الدولة الجديد يستمر أيضًا وزيرًا للدفاع. لكنه يترك رئيس الوزراء يمارس مهماته على رأس الحكومة. تحرير الاقتصاد الذي أعقب ذلك يذكر بالسياسة التي تم تبنيها منذ عقد سلف في مصر أو في سورية.

ومثل ما في هذين البلدين بقي التحكم العسكري البوليسي كما هو؛ كان الانفتاح يعيد توزيع الأوراق داخل النواة الحاكمة، قضايا الفساد هي قبل كل شيء أداة لإبعاد الخصوم السياسيين، وتحت تهديد قضية من هذا النوع توجه عبد العزيز بوتفليقة الذي كان يطمح في

خلافة بومدين إلى المنفى في أبو ظبي في تموز/ يوليو 1980.

فرانسوا ميتران الذي انتُخِب في أيار/ مايو 1981، كان يريد أن يجعل من العلاقات الفرنسية - الجزائرية نموذجًا في التعاون بين الشمال والجنوب. اتفاق مد الغاز الجزائري على مدى عشرين عامًا وُقِّع عليه في شباط/ فبراير 1982، مع تكلفة إضافية بـ14 بالمئة تدفعها الحكومة الفرنسية التي اختارت زيادة موارد شريكها بدلًا من تضخيم القروض الممنوحة للتعاون الثنائي. لكن المفاوضين الفرنسيين كانوا مدهوشين من فَقْد الحماس لدى أقرانهم الجزائريين على الرغم من سخاء العرض.

سوء التفاهم كان عميقًا ومعبرًا في آن معًا؛ كانت فرنسا ترى أنها تتعامل مع (دولة) يحركها البحث عن المصلحة الوطنية، في حين إنها تتوجه إلى نظام مهووس بالاستحواذ على الموارد الوطنية لمصلحته. الشفافية النسبية لاتفاق الغاز تضع حدودًا لتعسف إدارة بن جديد وأتباعه للربع المرتبط بالوقود. هذه المفاوضات أسهمت، للمفارقة، في أن تفتح عيون اليسار الفرنسي على ما يخص الطبيعة الواقعية للسلطة الجزائرية.

أعاد ديغول التوازن للدبلوماسية الفرنسية على حساب إسرائيل. وحاول بومبيد أن يقدم تصورًا (لسياسة عربية)، وانتقد غيسكار ديستان السلام المنفصل بين مصر وإسرائيل باسم حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير. وعلى الرغم من ذلك فإن فرانسوا ميتران كان هو رئيس الجمهورية الخامسة أكثرها نشاطًا في الشرق الأوسط، حيث يعبئ خلال سنوات طويلات الأدوات المدنية والعسكرية كلها للقوة الفرنسية.

ميتران قبل كل شيء هو صديق مخلص لإسرائيل، مخلص لكنه صارم. فقد ذهب منذ شهر آذار/ مارس 1982 في زيارة إلى دولة إسرائيل، وحطم أمام الكنيست تابوهًا مزدوجًا، بأنه ذكر في آن منظمة التحرير الفلسطينية وحق الشعب الفلسطيني في دولة. وحينما قرر مناحم بيغين رئيس الوزراء وأرييل شارون وزير الدفاع في حزيران/ يونيو غزو لبنان من أجل تدمير (الإرهاب) من منظمة التحرير الفلسطينية، تحرك ميتران ليتفادى معركة مُرتبة في بيروت، وحصل في آبا/ أغسطس على «الانسحاب بكرامة»[33] لعرفات والآلاف من أنصاره المسلحين. رحلة من العاصمة اللبنانية عبر البحر تمت تحت الحماية الفرنسية مثيرة غضب شارون الذي أقسم على قتل عرفات.

بتفكيك إسرائيل (للدولة الفلسطينية داخل الدولة) في لبنان ترك آلاف المسلحين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعملون في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية. لم يتوانوا في تشكيل (حزب الله). مع الإسهام النشيط للاستخبارات السورية والحرس الثوري الإيراني، لم يظهر حزب الله علينا إلا في عام 1985، متخفيًا خلال ثلاث سنوات السابقة تحت أسماء مختلفة من بينها الجهاد الإسلامي.

حاول ميتران بلا جدوى أن يقنع بيغين وخلفه إسحاق شامير أن إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية سوف يأتي في صالح المتطرفين، ومن ثم لا يخدم إسرائيل على المدى الطويل. ولهذا تدخلت فرنسا مرة ثانية في كانون الأول/ ديسمبر 1983 كي تنقذ عرفات: كان قائد منظمة التحرير آنذاك محاصرًا في شمال لبنان في مدينة طرابلس من قبل الجيش السوري والراديكاليين الفلسطينيين والميليشيات القريبة من إيران. سمحت العملية الفرنسية لعرفات وأتباعه المخلصين أن

---

(33) Jean-Pierre FILIU, Mitterand et la Paestine, Fayard, Paris, 2005, p.144

يفلتوا من الحصار السوري، ومن السفن الحربية الإسرائيلية التي تراقب طرابلس من البحر.

فرنسا ضالعة هنا إذًا في حرب غير معلنة مع سورية. الأسد هو الذي افتتح العداوة في أيلول/ سبتمبر 1981، حين اغتال السفير الفرنسي في بيروت، لأن نشاطه يعرقل أهداف دمشق سواء في لبنان أم في منظمة التحرير الفلسطينية. (حرب الظلال) هذه استمرت بعمليات اغتيال تديرها دمشق في باريس (شارع ماربوف في نيسان/ أبريل 1982، وشارع روزييه في شهر آب/ أغسطس) أو في لبنان (ضد سفارة فرنسا في أيار/ مايو 1982، وضد المظليين في موقع دراكار في تشرين الأول/ أكتوبر 1983). القوات الفرنسية التي كانت موجودة في لبنان في إطار القوات متعددة الجنسية كبدت الأسد وحلفاءه خسائر قاسية.

التزام ميتران بسيادة لبنان وباستقلال منظمة التحرير الفلسطينية عده الأسد عدوانًا لا يمكن التسامح معه، وظل مصممًا على أن يجعل دولة لبنان والمنظمة الفلسطينية تابعين له. يضاف إلى هذا المساندة غير المشروطة من فرنسا للعراق التي فقدت المبادرة في مواجهة إيران عام 1982، وعليها أن تدافع عن أراضيها في مواجهة الهجوم المضاد لجارتها. تبنى ميتران حجة تأييد صدام لدى ملكيات النفط ومصر: ((نحن نتمنى أن يتم حفظ التوازن القائم من قديم الزمان بين العالم العربي والعالم الفارسي))[34].

الحدود العراقية - الإيرانية أصبحت ذات أهمية كبرى في الخطاب الفرنسي. إقراض بغداد في أيار/ مايو 1983 خمس طائرات قاذفة مقاتلة سوبر-اتيندار من رصيد القوات الجوية الفرنسية يعد فعلًا

(34) تصريح لفرانسوا ميتران في مدينة أسوان المصرية في 26 نوفمبر 1982

للمشاركة في الحرب. ردت الجمهورية الإسلامية بأن كثفت في لبنان بالاشتراك مع استخبارات الأسد الإرهاب المضاد لفرنسا. خطف حزب الله رهائن فرنسيين ومن بينهم ميشيل سورا الذي مات في أثناء احتجازه في كانون الثاني/ يناير 1986.

أزمة الرهائن الفرنسيين في لبنان صارت أكثر تعقيدًا في عام 1986–1988 بفضل التعايش المشترك في الحكم بين الرئيس فرانسوا ميتران ورئيس الوزراء جاك شيراك. تعددت العمليات الإرهابية التي توجهها طهران في باريس التي وصلت إلى ذروتها في 17 أيلول/ سبتمبر 1986 بعملية شارع رين التي خلفت سبعة قتلى. الأسد الذي يمارس ببراعة دوره (بوصفه رجل إطفاء مشعل للحرائق) ارتضى أن يقوم بالوساطة بين فرنسا وإيران. ينبغي أن ننتظر تموز/ يوليو 1988 وقبول الخميني وقف إطلاق النار مع العراق كي تنتهي (الحرب القذرة) التي تقوم بها ضد فرنسا، أولًا سورية ثم إيران وحزب الله.

بعد أن انتهت مدة التعايش المشترك في الحكم تحرر ميتران من العقبات المرتبطة به، وبدأ يتحرك من جديد لصالح عرفات. قامت انتفاضة هزت غزة والضفة الغربية منذ أيلول/ سبتمبر 1987. هذه الحركة ترفض طريق حمل السلاح على الرغم من القمع الإسرائيلي الفظ، ورأت الصحافة فيها (ثورة حجارة). انخرطت منظمة التحرير الفلسطينية تحت ضغط هذه الانتفاضة في مسار حل الدولتين حيث ستتعايش الدولة الفلسطينية مع إسرائيل، على أساس من حدود 1967. حركة حماس التي ولدت من الفرع الفلسطيني للإخوان المسلمين رفضت في المقابل أي تنازل وهو ما ضمن لها المساندة الفعالة من سورية وإيران.

مرة ثانية، الصداقة المخلصة لميتران تجاه إسرائيل قادته إلى مساندة عرفات بوصفه الشريك الوحيد لسلام دائم. وهذا هو معنى دعوة القائد الفلسطيني في باريس في أيار/ مايو 1989، أعلن عرفات أن ميثاق منظمة التحرير الذي تم تبنيه من عشرين عامًا خلت في سياق نضال مفرط ضد إسرائيل (عفا عليه الزمان caduque). استمر ميتران في التطور الذي قاده لوضع تكافؤ صارم بين حق إسرائيل في الوجود وحق تأسيس دولة فلسطينية[35]. هذه المسألة عن الحق وعن عموميته سوف تصبح قريبًا في قلب انفجار سوف يقسم بعمق العالم العربي.

أزمة الكويت

وضع بورقيبة في شيخوخته المتقدمة في كانون الثاني/ يناير 1984 تونس في قلب اضطرابات تماثل في خطرها تلك التي حدثت قبل ذلك بست سنوات. (انتفاضات الخبز) هذه التي يلعب الاتحاد التونسي للشغل فيها دورًا محركًا تم سحقها بإراقة الدماء. بقيت الطبقة السياسية والنقابية على الرغم من ذلك مشلولة أمام الهالة الأبوية (للمجاهد الأكبر). ومن ثم استُقبِل بارتياح عام في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1987 (الانقلاب الطبي) الذي قام به بن علي رئيس الوزراء آنذاك: حصل هذا اللواء من الشرطة على شهادة من أربعة أطباء تسمح بتنحية بورقيبة (الذي بقي داخل إقامة جبرية حتى موته عام 2000).

(تغيير 7 تشرين الثاني/ نوفمبر) تم الاحتفال به في تونس بالضخامة نفسها التي تم بها من قبل الاحتفال بحركات التصحيح

(35) مؤتمر صحفي لفرانسوا ميتيران في القدس في 26 نوفمبر 1992

مع بومدين 1965 والأسد عام 1970 والسادات عام 1971، ولكن السلطة هنا وهناك انتقلت من يد إلى يد من دون أن يتغير شيء من طبيعتها الاستبدادية. إسلاميو راشد الغنوشي الذين يراهنون علنًا على بن علي وجدوا أنفسهم حرموا من انتصارهم النسبي في الانتخابات المحلية في نيسان/ أبريل 1989. عادة تعبئة الصناديق واعتقال المعارضين ونفي المعاندين رجعت مع بن علي، مع هذا البعد البوليسي الذي يميزه دائمًا من الديكتاتوريات العسكرية في العالم العربي.

مغامر آخر طموح هو النقيب علي عبد الله صالح صار في تموز/ يوليو 1978 رئيسًا لجمهورية اليمن العربية، هكذا أطلق على شمال اليمن منذ نهاية (الحرب الباردة العربية) على أرضها. صالح من قبيلة سنحان في اتحادِ حاشد، وهو من أكبر الأحلاف القبلية في العالم الزيدي -إمامة اليمن من عام 897 حتى عام 1962- دعت إلى الزيدية، وهي انشقاق محلي عن الشيعية الباقية بسبب انكفاء البلاد على ذاتها.

هكذا أمكن للرئيس صالح أن يعتمد على البرجوازية السنية في تعز التي حمى تجارتها عندما كان حاكمًا لهذه المدينة اليمنية (ولا سيما تهريب الكحول بوساطة طريق الويسكي الذي يقود إلى الساحل). رئيس الدولة ظل رئيسًا للأركان لأن عليه قبل كل شيء أن يبقى على قيد الحياة في وسط عالي المخاطر (متحف صنعاء هو بلا شك الوحيد في العالم الذي يعرض سيارات الليموزين المثقوبة بالرصاص الموجه لاغتيال الرؤساء). الانتخاب الداروينى الذي عمل لصالح بومدين أو الأسد أو صدام قبل صعودهم إلى السلطة المطلقة عمل أيضًا بالنسبة لصالح عندما أصبح رئيسًا.

أظهر صالح مهارات في المناورة والتآمر مبهرة على المستويات كلها. قام بتطهير القوات المسلحة لصالح أهله الأقربين، وسمح بجماعة الإخوان المسلمين (الإصلاح). وفي الوقت نفسه واجه تأثيرهم بالدعاة السلفيين الذين يستلهمون مذهب العربية السعودية المجاورة. دعم اكتشاف البترول في مأرب في عام 1984 و(حرب الرفاق) التي اجتاحت عدن في عام 1986 سلطة صالح في مواجهة اليمن الجنوبي المفتقر إلى الحيوية. في أيار/ مايو 1990 أصبح علي عبد الله صالح أول رئيس جمهورية لليمن الموحد عن طريق التفاوض والتعاون.

اشترك بن علي وصالح في الإعجاب بصدام حسين على قدر احتقارهم لملكيات النفط في الخليج. لقد خرب المستبد العراقي بلده بعد ثماني سنوات من الحرب مع إيران التي انتهت بلا غالب أو مغلوب. مارس صدام ابتزازًا متزايدًا في عدوانيته على دول الخليج: فهو يقتضي من الآن فصاعدًا تعويضًا عن الخسائر التي حدثت في البنى التحتية في العراق، مؤكدًا أنه تم تدميرها لمنع التوسع الإيراني في الإقليم كلها ومن ثم حماية ملكيات النفط.

في آب/ أغسطس 1990 غزا الجيش العراقي الكويت التي سرعان ما أعلن صدام ضمها ببساطة إلى العراق. موجة كبيرة من التأييد للمستبد العراقي سادت في العالم العربي وتم تشبيه صدام بالبطل الأسطوري صلاح الدين (كلاهما ولد في مدينة تكريت العراقية، حتى وإن كان صلاح الدين كرديًا وصدام عربيًا)، بل بروبين هود الذي يسلب أموال (الأغنياء) ليوزعها على الفقراء. حجم هذا الرجل يعبر كثيرًا عن التراجع الفكري الذي رافق هذا الجيل من التخلي.

لعب بن علي وصالح بورقة الرأي العام الذي يتفق هذه المرة مع اعتقاداتهما العميقة. اعتقد الملك حسين في الأردن وياسر عرفات أنه ليس أمامهما اختيار آخر سوى متابعة ميول جماهيرهم، على الأقل حتى لا يتنازلا أمام مزايدة الإخوان المسلمين في الأردن وحماس الفلسطينية: المأزق الذي وصلت إليه الانتفاضة في الضفة الغربية وغزة دعم الاحتجاج الإسلامي على الخيارات التفاوضية لمنظمة التحرير الفلسطينية والمملكة الهاشمية.

رأت مصر مبارك وسوريا الأسد في أزمة الكويت فرصة غير متوقعة، بالنسبة إلى الأول وهي العودة إلى مركز اللعبة العربية كـ(درع) للخليج؛ وبالنسبة إلى الثاني هو أن توافق الولايات المتحدة على حمايته على لبنان. كما كانت دمشق تأمل في ضربة حاسمة (للشقيق العدو) البعثي في بغداد. عندما استدعت العربية السعودية مئات الآلاف من العسكريين الأميركيين من أجل حماية حدودها، هذا التحالف المسمى (عاصفة الصحراء) تضمن في ما بعد قوات مصرية وسورية.

في المملكة العربية السعودية نفسها، الصدمة التي سببها لجوء آل سعود للقوات (الكافرة) هائلة. كان لـ (بن لادن) محادثة عاصفة مع وزير الدفاع بعد غزو الكويت، واقترح عليه بلا جدوى أن يضع محاربيه القدامى في أفغانستان في خدمة مقاومة صدام. ولم يذكر له أن أنصاره قد أقسموا له على الولاء المطلق بوصفه أميرًا لمنظمة القاعدة السرية. القطيعة شاملة بين آل سعود وبن لادن الذي أصبح تحت المراقبة في الإقامة الجبرية.

جاهد الإخوان المسلمون ليتبنوا تبنى موقفًا وسطًا، لأنهم موزعون بين قواعدهم (المتعاطفة مع صدام) ورعاتهم الأقوياء في

الخليج. أدانت الجماعة في آن ضم العراق للكويت ولجوء السعوديين إلى القوات الأمريكية. لم تتأخر العقوبات السعودية في النزول على الإخوان الذين تم تطهيرهم وإخراجهم من المؤسسات التعليمية ومن إشعاع المملكة الوهابية.

وضع القادة السعوديون السلفيين محل الإسلاميين المخلوعين وهم أنصار التفسير الحرفي، وبالتالي غير السياسي، للنصوص المقدسة؛ قائدهم هو ناصر الدين الألباني، شيخ من أصل سوري يدعو إلى أن «خير سياسة هو ترك السياسة»[36]. الالتزام السياسي بل الاجتماعي يشبه عبادة أوثان مذمومة من حيث إنها تلهي عن عبادة الله الواحد. هذه السلفية غير المسيسة هي في المقابل متداخلة مع الحياة اليومية التي تسعى إلى تقنين تفاصيلها كلها.

لم ينتظر الأسد فتح العداء ضد العراق ليتقاضى فوائد اشتراكه في (عاصفة الصحراء) فمن تشرين الأول/ أكتوبر 1990 سحقت القوات السورية الجيوب الأخيرة للمقاومة الوطنية في بيروت الشرقية. تم عقد (اتفاقيات سلام) في السعودية لتضع في النهاية حدًا (للحرب الأهلية) في لبنان، ولكن يتعلق الأمر في الواقع بتكريس الحماية السورية على البلاد التي اتخذت بعد ذلك بشهور شكل (اتفاق تآخٍ بين دمشق وبيروت).

في اللحظة التي يتحرك فيها العالم من أجل حرية الكويت لم يستثر وضع الوصاية السورية على لبنان أي إدانة سوى الإدانة التي وجهتها فرنسا.

---

(36) Cite in Bernard ROUGIER, (dir.), Qu’est-ce que le salafisme?, PUF, Paris 2008, p.55

في 15 كانون الثاني/ يناير 1991 الحلف الذي تكون تحت إشراف الولايات المتحدة بدأ قصفًا جويًا للجيش العراقي. حاول صدام أن يحرف الانتباه بإطلاق صواريخ سكود على إسرائيل (التي تضرب في الغالب، نظرًا لأنها غير دقيقة، أهدافًا فلسطينية). منعت الولايات المتحدة برئاسة جورج بوش الأب أي رد فعل مباشر من إسرائيل حتى لا تفسد الموافقة العربية على (عاصفة الصحراء). بدأ الهجوم البري في فجر يوم 24 شباط/ فبراير 1991. لم يكن يلزم أكثر من خمسة أيام حتى تتحرر الكويت، وأن يقبل العراق قرارات الأمم المتحدة كلها. ميتران الذي قدم مساندة انتقادية ولكن حاسمة للتحالف كان يقلق من تفسيرات انتقائية لقرارات الأمم المتحدة، التي لا تطبق في لبنان أو في فلسطين: ((الكيل بمكيالين، لكنه سيؤدي إلى اغتيال القانون الدولي الوليد))[37].

هذا القانون الدولي الذي فتح له سقوط جدار برلين آفاقًا كثيرة سوف يصبح أكثر من ذي قبل في الشرق الأوسط نموذجًا (للمكيل بمكيالين). سيادة لبنان تطأها أقدام سورية، وانتفاضة الأراضي الفلسطينية صارت انتفاضة يائسة لأن منظمة التحرير الفلسطينية قد أصبحت منبوذة بين الأمم بسبب تأييدها لصدام حسين - وهو ما يأتى بالطبع في صالح حماس. أما في ما يتعلق بالشعب العراقي فقد اعتقد في الوعود الأمريكية (بالتحرير)، وانتفض ضد الطاغية صدام. هذه الانتفاضة سيطرت في آذار/ مارس 1992 على البلاد معظمها، ولكن واشنطن المهووسة بالتهديد الإيراني ربطت بين التمردات العراقية وعملاء طهران.

فهم صدام حسين أنه مطلق اليد في قمع همجي، وذهب إلى حد

---

(37) خطاب الرئيس ميتيران في ثصر الإليزيه في 3 مارس 1991

استخدام غاز للقتال ضد المدن الشيعية في الجنوب. في شمال العراق أدى الخوف من مجزرة كيماوية جديدة مثل تلك التي ارتكبت في حلبجة في آذار/ مارس 1988 إلى نزوح السكان الأكراد إلى تركيا. فرضت الولايات المتحدة -ليس لمساعدة أكراد العراق بقدر ما هو للمحافظة على الجهة الجنوبية لحلف الأطلنطي- منطقة حظر جوي في الشمال فوق خط 36؛ الذي أدى إلى حكم ذاتي في الواقع للأقاليم الكردية بالنسبة إلى بغداد.

حمام الدم الذي حدث في آذار/ مارس 1991 وعشرات الآلاف من الضحايا أدي على الرغم من ذلك إلى دعم نظام صدام حسين. العقوبات التي تبنتها الأمم المتحدة ضد العراق حبذت بسبب التموين المقرر سيطرة أكثر إحكامًا لجهاز القمع على السكان. الميول الشمولية التي كانت ملحوظة أصلًا لدى البعث العراقي ازدادت بذلك قوة. كان حافظ الأسد يسره أن يؤكد أنه إذا أراد شخص ما أن يسيء إليه فإنه يعرف قبل الشخص نفسه؛ ليس على صدام حسين سوى أن يعمل بهذه الاستباقات لمستبد مصاب بجنون العظمة يرتكب مجازر دون تمييز ويعيد إحياء نظامه بإراقة دم شعبه.

في يوم سقوط جدار برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر 1989، أجرت الأردن أول انتخاب حرة منذ ربع قرن. هذه الانتخابات فرضتها على الملك حسين تمردات القبائل التي ضجت بسبب الفساد ومحسوبية النظام. حاز الإسلاميون للمرة الأولى على انتصار نسبي، ودخل الإخوان المسلمون بوصفهم شركاء أقلية في حكومة ائتلافية. وأوروبا في حال تصالح تاريخي مع ذاتها لم تبال بالتجربة الأردنية وبوجه عام بمستقبل الديمقراطية في العالم العربي.

(الحرية) هي الكلمة الأساسية في أوروبا ما بعد السوفياتية، في حين

إن (الاستقرار) كان له الأولوية المطلقة في جنوب البحر المتوسط. نظم الطغيان نفسها التي تتهاوى باسم (الحرية) في القارة الأوروبية يحتفى بها باسم (الاستقرار) في العالم العربي. حتى بدأ بعض المفكرين في صياغة ما يسمى بـ (الاستثناء العربي)، وكأن السجون حين تكون مملوءة عن آخرها والسيطرة السياسية العسكرية، والمجازر المتكررة لا تكفي لتفسير سلبية ما للمجتمعات العربية.

ترك الولايات المتحدة الشعب العراقي في آذار/ مارس 1991 لجلاده على الرغم من أنها دفعت هذا الشعب إلى التمرد؛ وصل إلى قمة القسوة. ميتران كان على حق في أن يقلق من (الكيل بمكيالين)، فقد فهم العرب في قلب معاناة كبرى أن الحقوق هي للآخرين أو على أسوأ الأحوال هو حق الأقوى؛ حق المحتلين والمستبدين.

المعسكران المتعارضان (للحرب الباردة العربية) القومية العربية والإسلام السياسي تفجرا في قتال بين الفصائل، ولكن تراخي الحصار حولهم لم يؤد مع ذلك إلى تحرر السكان. صدام بعد أن جر بلاده إلى حرب رهيبة على مدى ثمانية أعوام ضد العراق واصل بغزو الكويت وسحق انتفاضة آذار/ مارس 1991. والأسد القوي بعد أن قام بتصفية الاحتجاج في أعوام 1979-1982 هو الآن الوصي الذي لا يعارض على لبنان. حاول مبارك أن يبيع (حماية) مصر للخليج بأعلى سعر من دون أن يأتي قمع الانتفاضة الفلسطينية ليعكر السلام مع إسرائيل.

الإسلام السياسي مليء أيضًا بصراعات. التطهير السعودي في 1990-1991 ألقى بالإخوان المسلمين في دائرة خطرة لأن التجرية الأردنية وحدها فقط هي التي تسمح بأن تقدم لهم صدقية على اختيار الشرعية. يواجه السلفيون (الإخوان) برؤية متمحورة حول مراقبة

صارمة لا يكون الدين فيها موضوعًا للإيمان بقدر ما هو موضوع لشعائر ظاهرة. المستبدون العرب الذين لم يخشوا من قبل أن يلعبوا بورقة الإسلاميين في مواجهة اليسار، يراهنون من الآن فصاعدًا على السلفـيين الودعاء ضد الإسلاميين المناضلين. الجهاديون الذين يمثلون قلة ضئيلة وحدهم هم الذين يحملون شعلة الثورة، ويزيد من اشتعالها أنها في المنفى.

حتى المسالم جدًا ألبير قصيري، المنشد المصري للاستمتاع اللاسياسي، وصل إلى حد التعبير عن غضبه بسبب تحايل هذه الشخصيات: "رغبته في أن يرى يومًا جنس الطغاة الشنيع وقد تمت تصفيته، هي رغبة محمومة أكثر من رغبته الجسدية"(38). رأى الرجال والنساء العرب في صيف 1982 بيروت يجول فيها الجيش الإسرائيلي، ثم بعد ذلك شاهدوا خلال شتاء 1991 قصف بغداد من القوات الأمريكية. وكل يوم يرون فلسطينيين مسلحين بالحجارة فقط يسقطون صرعى برصاص المحتل.

الشعور بالعجز الفردي والجماعي الذي ينتشر يلتهم أكثر المحركات حميمية للمجتمعات العربية. النفي الداخلى والفرار إلى الاستهلاك أو التقوى المغالية هي ذرائع ملائمة لرأب الصدوع المؤلمة. تبقى الأرض مع ذلك خصبة للانحرافات الانتحارية؛ هكذا جاء عهد الإرهاب.

(38) Albert COSSERY, Une ambition dans le désert, Joëlle Losfeld, Paris, 2013, p.113 (edition speciale parue chez Gallimard en 1984).,

6

الاستخدام الجيد للإرهاب

(2011-1991)

عصر رجال الإطفاء مشعلي الحرائق

اختطاف الطائرات المدنية في اتجاه الأردن من قِبل فصيل يساري من منظمة التحرير الفلسطينية في أيلول/ سبتمبر 1970 يضفي على المشهد العالمي انبثاق إرهاب بكثافة إعلامية عالية. هذا المسار سيتضخم مع التغطية المباشرة لحجز الرهائن الدموي الذي أحزن الألعاب الأولمبية في ميونيخ في أيلول/ سبتمبر 1976. لا يوجد أي شيء إسلامي في هذا الإرهاب الذي أمكن حتى تسميته "إعلاني". بعد ذلك بعقد من الزمان، العمليات الأولى ضد الاحتلال الإسرائيلي في لبنان قام بها مناضلون قوميون قادمون من منظمة التحرير الفلسطينية أو من التيار العلماني.

استغرق حزب الله وقتًا طويلًا في تصفية هذه المقاومة التقدمية في جنوب لبنان قبل أن يفرض (مقاومته الإسلامية) الواحدة والوحيدة. أصبحت العمليات الانتحارية حينئذ سلاحًا مشهديًا ضد المصالح الغربية في بيروت والقوى الإسرائيلية في جنوب لبنان. وصلت ميليشيات حزب الله إلى مستوى من الحرفية بحيث أن العمليات الانتحارية لم تعد إلا لونًا من الألوان المتعددة للانتفاض.

طرد إسرائيل في كانون الأول/ ديسمبر 1992 لمئات الإسلاميين الفلسطينيين من جنوب لبنان انتقامًا لقتل جندي على الحدود سمح

لحماس باستيعاب تكنيك القتال الذي لدى حزب الله. هذا التعاون بين المجموعات المسلحة يتجاوز التمييز بين حزب الله (الشيعي) وحماس (السنية)، وقد استلهمت حماس حزب الله فزودت نفسها بفرع مسلح هو كتائب عز الدين القسام، على اسم مفجر (الثورة) الفلسطينية عام 1936، كي تنسب نفسها إلى إرث قومي سابق على منظمة التحرير الفلسطينية.

لم يكن هناك أي قدر يحتم هذا التحول لجنوب لبنان إلى معمل للعنف، فهو تحديدًا (الخط الأحمر) الذي رسمته إسرائيل عام 1976 كي توقف تقدم سورية، الذي ركز في هذا الجزء من الأراضي اللبنانية العدد الأكبر من المقاتلين ومن ترسانة منظمة التحرير الفلسطينية. الغزو الإسرائيلي عام 1982 هو الذي حبذ قيام حزب الله مقام المقاومة الفلسطينية ومكانها. أما في ما يخص الطرد الجماعي للإسلاميين الفلسطينيين في 1992، فقد سهل عسكرة حماس عند اتصالها بحزب الله، وهو ما سمح للحركة الإسلامية أن تحتج بالسلاح على الاختيار التفاوضي الذي تبنته أخيرًا منظمة التحرير الفلسطينية.

بصورة عامة وصمة (الإرهاب) أطلقتها القوى المحتلة على اختلافها كي تعفي نفسها من اقتضاءات قانون الحرب تنال من شرعية المقاومة. البريطانيون وصفوا العرب ثم اليهود (بالإرهابيين) في فلسطين، وهو مصطلح استخدم أيضًا بإفراط من قِبل الفرنسيين في الجزائر، ثم إسرائيل تجاه الفلسطينيين واللبنانيين (كما توقع ذلك ديغول عام 1967).

أدى انهيار الإمبراطورية السوفياتية ونهاية الحرب الباردة إلى قيام الولايات المتحدة بوضع أساس (لنظام عالمي جديد) في الشرق

الأوسط. صدام حسين المستمر في الخضوع لعقوبات الأمم المتحدة لا يمكن أن يمثل عدوًا على مقاس هذا النظام العالمي الجديد. وهنا فرض التهديد المنتشر (بالإرهاب الإسلامي) نفسه في الخطاب الإستراتيجي والتخطيط العسكري. لم يتأخر المستبدون العرب في فهم المنافع التي يمكن أن يحصلوا عليها من مثل هذا الانحراف الأيديولوجي.

كان جنرالات الجزائر هم أول من أثاروا فزاعة (الإرهاب الإسلامي) كي يرفضوا حكم صناديق الانتخاب، ولكن اليمين الإسرائيلي لم يتوان هو الآخر –حينما تعلق الأمر بإفشال مسار السلام مع منظمة التحرير الفلسطينية بعد اغتيال إسحاق رابين– أن يخرب مسار السلام الدائر مع منظمة التحرير الفلسطينية.

ينبغي مع ذلك أن نعود بعيدًا إلى أفغانستان كي تتشكل أول منظمة إرهابية ذات رسالة كوكبية. على هذه العولمة للإرهاب ترد عولمة الحملة التي تقودها الولايات المتحدة للقضاء عليه، وستكون الشعوب العربية مرة أخرى أول ضحايا هذه العسكرة المفرطة.

المجزرة الجزائرية

عندما تحدى الصبية الجزائريون البائسون قوات الأمن في تشرين الأول/ أكتوبر 1988 كان أبطالهم هم المراهقون الفلسطينيون في الانتفاضة، ولكن التظاهرات تم قمعها بقسوة تجاوزت دموية (انتفاضة الخبز) ذات الضحايا الكثيرين في مصر عام 1977، وفي المغرب 1981 أو في تونس في كانون الأول/ يناير 1984. كانت القوات البرية بقيادة الجنرال خالد نزار هي التي تقوم بالقمع، متصرفة وكأنها قوات احتلال في داخل العاصمة مع استخدام منهجي للتعذيب.

النظام الجزائري عانى أكثر من أي ديكتاتورية عربية أخرى من أزمة الاتحاد السوفياتي بسبب التوافقات العميقة الموجودة بين جبهة التحرير الوطني والحزب الشيوعي السوفياتي من جانب، وبين الأمن العسكري (SM) ومنظمة الاستخبارات السوفياتية (KGB) من جانب آخر. علاوة على ذلك أضرت الصدمة البترولية المضادة في منتصف سنوات 1980 كثيرًا ببلد يعتمد كلية على تصدير الوقود. عرقلة هذا الريع حفز الصراعات على السلطة عند (متخذي القرار)، هكذا يطلق الرأي العام الجزائري على الرتب العليا العسكرية القابضين على السلطة الفعلية.

كافأ بن جديد الأمن العسكري، ورقى نزار إلى منصب رئيس الأركان (وهي وظيفة تم إلغاؤها بعد الانقلاب الفاشل في 1967). حدد مجلس منظمة التحرير الوطني في كانون الأول/ ديسمبر 1988 بن جديد مرشحًا وحيدًا لمدة جديدة التي حصل فيها على 933 من الأصوات. الاستفتاء الدستوري في شباط/ فبراير 1989 ألغى المرجعية إلى (الاشتراكية) ووضع حدًا لنظام الحزب الواحد وأكد استقلال السلطة القضائية.

بعد ذلك تم تأسيس (الجبهة الإسلامية للخلاص) (FIS)، وهي تستثمر رفض الفساد المعمم، وأيضًا الاحتفاء بالمشروعات الصغيرة في مواجهة التوجهات الدولية لجبهة التحرير الوطني. في حزيران/ يونيو 1990 حصلت الجبهة الإسلامية للخلاص على 54 بالمئة من الأصوات في الانتخابات المحلية في مقابل 28 بالمئة لجبهة التحرير الوطني. كان بن جديد مقتنعًا أن الانفتاح السياسي وحده يمكن أن يتفادى أزمة خطرة، لكنه يراعي (متخذي القرار) بإعطاء منصب وزير الدفاع لنزار (منذ انقلاب 1965 رئيس الجمهورية كان هو وزير الدفاع) مع سماحه بإعادة تكوين الأمن العسكري تحت اسم

قسم الاستخبارات والأمن (DRS).

في أيار/ مايو 1991 أدانت الجبهة الإسلامية للخلاص تقسيم الدوائر الانتخابية الجديدة الذي يأتي في صورة فاضحة لصالح جبهة التحرير الوطني، ونظمت احتجاجًا على ذلك احتلالًا للميادين العامة. تم إعلان حالة الطوارئ، واستخدام نزار 10000 عسكري و200 عربة مدرعة في الجزائر العاصمة. الانتخابات البرلمانية المنتظرة في حزيران/ يونيو تم تأجيلها ستة أشهر، وخف التوتر في نهاية الصيف، وفرضت قيادة جبهة الخلاص حتى على قواعدها المناضلة الاشتراك في انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 1991، التي حصل الإسلاميون فيها على 47٫3 بالمئة من الأصوات في الجولة الأولى.

لن تكون هناك جولة ثانية: نزار على رأس مجموعة من الجنرالات (من بينهم توفيق مدين رئيس الاستخبارات) أجبروا بن جديد على الاستقالة في كانون الأول/ يناير 1992. (متخذو القرار) الانقلابيون وضعوا في صدارة المشهد قيادة مدنية جماعية، اللجنة العليا للدولة (HCE) محرومة من السلطة الحقيقية، وبن جديد الذي وُضع في الإقامة الجبرية اتُهم بأنه (غورباتشوف) المستعد للتضحية بالنظام باسم (إصلاحات) انتحارية. بمجرد أن الرئيس المخلوع كان مستعدًا للتعايش مع حكومة إسلامية سارع بتدخل (متخذي القرار).

أحاط ميتران رد فعله على الانقلاب بترف من الاحتياطات الخطابية: «أنا لا جعل نفسي حكمًا على ما يحدث في الجزائر. أقول فقط أن ما لم يكتمل في هذا الظرف حتى الموعد المحدد يجب أن يتم وسوف يشرف القادة الجزائريون أن يجدوا مسار التحول الديمقراطي الضروري الذي يمر بالطبع عبر الانتخابات»[39]. لم يكن يلزم أكثر

(39) مؤتمر صحفي للرئيس ميتيران في لوكسمبورج في 14 يناير 1992.

من هذا حتى يضع (متخذو القرار) أنفسهم كوطنيين مهانين، واتهموا الجبهة الإسلامية للخلاص بأنها (حزب فرنسا).

حُظرت جبهة الخلاص، وحُلّت المحليات الإسلامية، واعتُقل آلاف من المناضلين، وفتحت معسكرات اعتقال في الصحراء. محمد بوضياف واحد من تسعة مؤسسين لجبهة التحرير وافق على أن يعود من منفاه المغربي لرئاسة اللجنة العليا للدولة، وقد أذهلته همجية القمع العسكري، وحاول من دون جدوى أن يوقفها. في حزيران/ يونيو 1992 اغتيل بوضياف في أثناء لقاء في عناية من قِبل واحد من الحرس كانت له علاقات غامضة مع قسم الاستخبارات والأمن.

مصرع بوضياف أسكت أي نقد ضد التصعيد الذي يفرضه (متخذو القرار)، وقد تم تفكيك جبهة الخلاص بسرعة لأن تبنيها للشرعية جعلها هشة. في المقابل، تجمعات الجهاديين الذين يدعون إلى الكفاح المسلح، سواء في السرية أم في الأحراش، وجدوا متطوعين جددًا يتدفقون. كانوا يتجمعون في جماعة إسلامية مسلحة (GIA)، جماعة بالمفرد ويجوز بالجمع أيضًا نظرًا إلى تنوع هذا التحالف. أصبح المثقفون الفرانكفونيون من أهم أهدافهم المفضلة.

تفاقم العنف حتى وصل إلى متوسط 500 قتيل في الأسبوع في 1993–1994. المتمردون الذين كانوا 2000 فقط أصبحوا في عام 1992 أكثر من ذلك بعشرين مرة بعد سنتين. علاوة على الجماعة الإسلامية المسلحة والجبهة الإسلامية للخلاص التي تشددت بسبب فشل المسار الانتخابي، أصبح لها جيش الخلاص الإسلامي (AIS). انخرطت ميليشيات (وطنية) للدفاع عن النفس في القوات المسلحة، على نموذج يذكر بالتابعين (الحركيين) للجيش الفرنسي في أثناء حرب التحرير.

أحيل نزار رسميًا إلى التقاعد، وهو ما لا يعني شيئًا ذا بال لدى (متخذي القرار). خلفه الجنرال الأمين زروال وزيرًا للدفاع، قبل أن يصبح رئيسًا للجنة العليا للدولة، ثم يُنتخب بـ 61 بالمئة من الأصوات رئيسًا للجمهورية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1995. يوم الاقتراع تم استخدام 350000 عسكريًا و25 بالمئة التي حصل عليها المرشح المنافس الذي كان عضوًا في الإخوان المسلمين، ثم أصبح شديد النقد لجبهة الخلاص، تبين دوام انتخاب إسلامي ضمني.

من تموز/ يوليو إلى تشرين الثاني/ نوفمبر 1995، قامت الجماعة الإسلامية المسلحة بحملة إرهابية على الأراضي الفرنسية. بدأت باغتيال أحد مؤسسي جبهة الخلاص في باريس، واستمرت بعد ذلك بعمليات إرهابية في المترو الباريسي. خالد قلقال أحد الجانحين الجزائريين عمره أربع وعشرون سنة، مقيم في إحدى ضواحي ليون هو المحور المحرك لهذه الشبكة التابعة للجماعة الإسلامية، قُتِل في أثناء مطاردة بوليسية حظيت بتغطية إعلامية واسعة. اتهمت فرنسا حينئذ بريطانيا العظمى بأنها تسمح في عاصمتها بـ (لندنستان)، حيث يجد الجهاديون ومن بينهم الجزائريون مساندة لوجستية وتسهيلات في البروباغندا.

في عام 1997 قُتِل 4000 مدني في موجة مجازر استهدفت قرى بأكملها، ولا سيما في بنطلحة في أيلول/ سبتمبر ورليزان في كانون الأول/ ديسمبر. هذه المجازر نسبت إلى الجماعة الإسلامي التي توغلت في التطهيرات الداخلية التي دعا إليها بلا شك تسلل عناصر استخباراتية. وقسم الاستخبارات والأمن نفسه يتفاوض مع جيش الخلاص الإسلامي الذي طالب بوقف إطلاق النار. نهاية حرب العصابات لجبهة الخلاص فتحت سلسلة جديدة من تصفية الحسابات بين جبهة الخلاص والجماعة الإسلامية. المواقع التي تمت

تصفيتها كانت معاقل قديمة لجبهة الخلاص.

الجماعة الإسلامية التي أضعفتها الخلافات الداخلية استنفدت نفسها في القيام بحرب بلا هوادة على الجبهات جميعها. أقلية من المنشقين كونت مجموعة سلفية للوعظ والقتال (GSPC) في أيلول/ سبتمبر 1998، والتزمت بعدم الاعتداء سوى على قوات الأمن. على الجيش أخيرًا أن يقبل عدم قدرته على (تصفية) التمرد وضرورة التعايش مع (الإرهاب المتبقي).

هذه العودة الصعبة للواقع أدت إلى انسحاب مبكر لزروال، وتوافق (متخذو القرار) على الحل البديل في اللجوء إلى بوتفليقة، الوزير السابق للشؤون الخارجية لبومدين المنفي إلى الخليج منذ 1980 «كان نزار هو الوحيد الذي رفض استدعاء بوتفليقة الذي يعامله (بالحصان الرديء)[40]». الاستدعاء الدموي لبوضياف في ما قبل يوضح عدم قدرة العصبة القائدة على أن تفكر خارج الإطار الموروث من عصر بومدين.

قدم بوتفليقة نفسه على أنه (مستقل) للانتخابات الرئاسية في نيسان/ أبريل 1999 التي سحب المرشحون الآخرون فيها أنفسهم علامة على الاحتجاج. تم بعد ذلك إقرار بوساطة استفتاء عام (رسميًا 98.6 بالمئة من الأصوات المؤيدة) سياسته في (التعاون المدني)، ثم الإفراج على الأقل عن 5000 متمرد خلال الشهور التالية (في حين إن معارضين لم يستخدموا السلاح يومًا بقوا في السجون). بقي متوسط القتلى في الأسبوع حوالى 200 قتيل.

دفع الشعب الجزائري ثمنًا فادحًا لتصويته لصالح الرفض المكثف لجبهة التحرير (أكثر مما هو لانتخاب جبهة الخلاص) في كانون الأول/

(40) NEZZAR, Le Sultant de Bouteflika,Transbordeurs, Marseille, 2003, p.30 Khaled

ديسمبر 1991. (العقد الأسود) انتهى من دون عودة كاملة للسلام المدني، وبحصيلة، بحسب المصادر العسكرية، قدرها 150000 قتيل (غير آلاف (المختفين))، هذه المجزرة يمكن مقارنتها بالحصيلة الفظيعة لحرب الاستقلال (حتى وإن كان عدد سكان الجزائر وقتها أقل بثلاث مرات).

الجلادون سواء أكانوا عسكريين أم جهاديين غفر كل منهم للآخر. كما في لبنان في 1990 انتهت الحرب الأهلية بالعفو الصادم مثله مثل النسيان العمدي الذي يتضمنه. يوجد بلا مراء مهزوم هو الشعب، ومنتصرون هم أمراء الحرب من الاتجاهات جميعها الذين ازدهرت تجارتهم في البلد الخراب. ومن الدال، من وجهة النظر هذه، أن قطاع الوقود قد تمت صيانته حتى في أعلى لحظات الصراع: فلا توجد عملية واحدة استهدفت مواقع الصناعة الأولى في البلد أو خطوط الأنابيب التي تمتد آلاف الكيلومترات.

حياة مسار السلام وموته

ينوي جورج بوش الأب أن يلقي في الشرق الأوسط بأسس (لنظام عالمي جديد)، في غمار تحرير الكويت. تمت الدعوة إلى مؤتمر للسلام في مدريد في تشرين الأول/ أكتوبر 1991 بوساطة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (الذي لم يكن يمارس سوى رئاسة مشتركة شكلية، ثم اختفى بعد ذلك). تم استبعاد منظمة التحرير من هذا المؤتمر، الذي لم يكن للاتحاد الأوروبي فيه سوى وضع مراقب. نتيجة لاجتماع مدريد دارت أربع سلاسل من المفاوضات الثنائية تحت إشراف الجانب الأميركي وحده، بين إسرائيل من جانب وسورية ولبنان والأردن والوفد الفلسطيني برئاسة حيدر عبد الشافي، شخصية وطنية من غزة، من جانب آخر.

سرعان ما تعثرت هذه المفاوضات الأربعة بينما الانتفاضة مستمرة في الضفة وغزة. انتصار حزب العمل في الانتخابات الإسرائيلية أتى بإسحق رابين على رأس الحكومة وشيمون بيريز إلى وزارة الخارجية. سوف يفتحان قناة في أوسلو لمفاوضات سرية مع منظمة التحرير الفلسطينية، بهدف ملّح هو تخليص إسرائيل من وطأة احتلال غزة. بينما كان حيدر عبد الشافي لا يتهاون في موضوع الاستيطان وافق عرفات على ألا يطرح هذا الموضوع أصلًا في (اتفاقيات أوسلو)، حيث إن الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير يصحبه التزام بإقامة (سلطة فلسطينية) على الأراضي التي تتركها إسرائيل.

تم التوقيع على الاتفاقات بإشراف بيل كلينتون في البيت الأبيض في أيلول/ سبتمبر 1993 - حتى وإن كانت الولايات المتحدة لم تسهم فيها بشيء. رابين وعرفات بصحبة شيمون بيريز ومحمود عباس المسمى أبو مازن المتفاوض الفلسطيني الأساسي. ترد حماس في غزة بالقيام بأول عملية انتحارية في تاريخها (ضد مركز الشرطة الرئيسي). من هنا سوف يفتتح مسار السلام مع سوء تفاهم عميق في غزة: يباهي كوادر منظمة التحرير بأنهم حرروا هذه الأرض في حين إن السكان يظنون أن تضحياتهم وحدها في أثناء الانتفاضة سمحت بعودة المناضلين المنفيين.

استقرت السلطة الفلسطينية في تموز/ يوليو 1994 في قطاع غزة ومدينة أريحا، وهو الموقع الوحيد في الضفة الغربية الذي وافقت إسرائيل على الجلاء عنه، لأن مسار الجلاء هذا معقد بوجه خاص ومرتبط بالإرادة الطيبة للطرفين من دون جدول زمني ملزم. علاوة على ذلك تعمل إسرائيل بصورة منتظمة على استرجاع الأراضي الفلسطينية التي تتجاوز أعمالها المتراكمة حجم المساعدات الممنوحة للسلطة الفلسطينية - وفي هذا المجال الاتحاد الأوروبي أكثر كرمًا بوضوح من الولايات المتحدة.

سكان الضفة وغزة بدلًا من أن يتلقوا (عوائد السلام) يجدون حياتهم اليومية تزداد صعوبة، الاستيطان الإسرائيلي يتزايد، وزعماء السلطة الفلسطينية يفرطون في استخدام سلطتهم الجديدة. عقد رابين اتفاق سلام مع الملك حسين في تشرين الأول/ أكتوبر 1994، والطريق المسدودة التي وصلت إليها المفاوضات مع الأسد دفعته إلى إعادة إطلاق الجانب الفلسطيني. في أيلول/ سبتمبر 1995 وقع معه عرفات في واشنطن على اتفاق اسمه (أوسلو 2)، اتفاق يقسم الضفة الغربية إلى ثلاث مناطق: السلطة الفلسطينية مدعوة لإدارة المنطقة (أ) حيث يقيم 90 بالمئة من السكان الفلسطينيين، بينما المنطقة (ج) تدخل في اختصاص إسرائيل التام، والمنطقة (ب) مشتركة.

بعد أوسلو (2) أصبح رابين هدفًا لحملة سياسية بالغة العنف، ولا سيما من جانب رئيس الليكود بنيامين نتنياهو. سقط رئيس الوزراء الإسرائيلي برصاصات أحد المتطرفين اليهود في تشرين الثاني/ نوفمبر 1995. تولى بيريز رئاسة الحكومة انتظارًا للانتخابات المبكرة. في هذا الوقت تلعب حماس سياسة الأسوأ بمضاعفة العمليات الانتحارية في إسرائيل. عُقدت قمة (لصانعي السلام) في مارس 1996 في مدينة شرم الشيخ المصرية بمبادرة من الرئيس كلينتون مع مشاركة من قادة واحد وثلاثين بلدًا.

الإرهاب الإسلامي تم تحديده على أنه تهديد شامل حتى في ما وراء الشرق الأوسط. هذا الحشد الاستثنائي لم يسمح على الرغم من ذلك لبيريز بأن يتفادى الهزيمة أمام (بيبي) نتنياهو في أيار/ مايو 1996. رئيس الليكود، المعارض التاريخي لاتفاقات أوسلو سوف يجتهد كي يفرغها من جوهرها وفي الوقت نفسه يكثف من الاستيطان. أرسل في أيلول/ سبتمبر 1997 كوماندو من الموساد إلى عمان ليغتال فيها بالسم البطيء خالد مشعل، قائد حماس في المنفى.

ولكن الاستخبارات الأردنية ضبطت الجواسيس الإسرائيليين، وهدد الملك حسين غاضبًا كلينتون بإلغاء اتفاق السلام الذي وقع عليه مع رابين إذا لم يرسل نتنياهو الترياق الوحيد القادر على إنقاذ مشعل. قاد الرفض الأولي لبيبي الملك الأردني إلى التشدد في مطالبه وحصل بالإضافة إلى الترياق على تحرير الشيخ ياسين مؤسس حماس السجين في إسرائيل منذ 1989. على عرفات من الآن فصاعدًا أن يتوافق في غزة مع ياسين المحاط بهالة السجن في إسرائيل، وفي الخارج مع مشعل الذي نفد بمعجزة من محاولة اغتيال إسرائيلية.

هذا يعني أن منزلة السلطة الفلسطينية ورئيسها تدهورت بصورة خطرة أمام منزلة حماس. محاباة عرفات لأعوانه، وفساد التابعين له، وقسوة الشرطة الفلسطينية تدعم مناخًا ضارًا في الضفة الغربية وغزة. يأمل عرفات بعد هزيمة «بيبي» في الانتخابات في أيار/ مايو 1999 أن يكون يهود باراك رئيس الحكومة الإسرائيلية رابين جديدًا. ولكن الكنيست الأكثر انقسامًا في تاريخ إسرائيل وائتلاف باراك يضم سبعة أحزاب على الأقل. إضافة إلى ذلك باراك مؤيد للتصرف من طرف واحد في صيغة لضمان أمن إسرائيل، ولا يرى جدوى في مفاوضات جوهرية. في أيار/ مايو 2000 يقرر انسحاب إسرائيل من طرف واحد خارج لبنان بعد ثمانية عشرة عامًا من الاحتلال من دون أي تشاور مع بيروت. احتفل حزب الله حينئذ بالطبع بانتصار المقاومة الإسلامية، وهو ما يشجع مزايدة حماس في الأراضي الفلسطينية.

قمة باراك – عرفات التي دعا إليها كلينتون في كامب دافيد في تموز/ يوليو 2000 أُسيء إعدادها كما أسيئت إدارتها من جانب الدبلوماسية الأميركية. الخلافات حول القدس عاصمة غير مقسمة لإسرائيل بحسب باراك وعاصمة للدولتين بحسب عرفات تبدو أنه لا يمكن تجاوزها. بعد ذلك بشهرين في أيلول/ سبتمبر، أرييل

شارون الذي يأمل في منافسة نتنياهو على قيادة الليكود قام في يومين متتاليين بزيارة لساحة المسجد الأقصى في القدس (المكان المقدس الثالث للإسلام يطالب به متطرفو اليهود باعتباره تل المعبد).

الزيارة الثانية لشارون بحماية بوليسية بالغة تطلق أحداثًا مميتة امتدت سريعًا إلى مجمل الأراضي الفلسطينية. انتفاضة جديدة تبدأ عنيفة ومسلحة من أولها، خلافًا للانتفاضة السلمية فيما بين 1978 – 1993. في مواجهة كتائب القسام لحماس أسس أنصار فتح كتائب شهداء الأقصى، هذه الجماعات المتنافسة تمارس كلها عمليات انتحارية. في شباط/ فبراير 2001 انُتخب شارون رئيسًا للوزراء بـ 62.4 بالمئة من الأصوات ضد باراك. دُفن مسار السلام الإسرائيلي الفلسطيني تمامًا.

القاعدة والجزيرة

تركنا بن لادن في خريف 1990 في قطيعة مفتوحة مع آل سعود بسبب لجوئهم إلى الحماية (الكافرة) للولايات المتحدة ضد العراق. طُرد في أيار/ مايو 1991 من السعودية إلى باكستان. لن يرى بن لادن بعد ذلك أرض بلاده التي أسقطت عنه الجنسية في ما بعد. انتهى به الأمر مستقرًا في السودان حيث توجد طغمة عسكرية ذات توجه إسلامي تستقبل طوعًا قادة (الإرهاب الدولي).

من كانون الأول/ ديسمبر 1991 إلى أيار/ مايو 1996 ينسج بن لادن بصبر انطلاقًا من الخرطوم قماش القاعدة، المنظمة السرية التي كونها حول رفاقه في الجهاد الأفغاني الذي يعزو لها من الآن فصاعدًا مهمة ثورية. لحق الظواهري ببن لادن في السودان ويقوم بالتنظير للديالكتيك في ما بين (العدو البعيد) الاتحاد السوفياتي بالأمس

والولايات المتحدة اليوم، و(العدو القريب) النظم الإسلامية الزائفة؛ الأهداف الأولى للقاعدة.

إسقاط آل سعود يصبح هاجسًا عند بن لادن. ممثله في بريطانيا خالد فواز يتكفل بنشر أطروحات القاعدة من قلب (لندنستان)، ولكن الجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية ترفض أي شكل للتعاون مع القاعدة. وفي ما يخص الكتائب الصومالية التي تقاتل ضد التدخل (الإنساني) للولايات المتحدة في 1993 كانت تتلاعب بالقاعدة من دون أن تتنازل لها عن أي شيء. أخيرًا محاولة اغتيال مبارك بوساطة الظواهري في أثناء القمة الأفريقية في أثيوبيا في حزيران/ يونيو 1995 فشلت لأن رئيس الاستخبارات المصرية عمر سليمان أقنع الرئيس أن يصطحب معه سيارته الخاصة المصفحة.

النظام السوداني الذي سلّم من قبل كارلوس لفرنسا، اقترح على الولايات المتحدة أن يسلمها بن لادن. لكن أساءت الاستخبارات الأمريكية وقتها تقدير امتداد الشبكة الدولية للقاعدة، وخشيت إدارة كلينتون من أن اعتقال إرهابي سوف يستثير عمليات إرهابية أخرى للإفراج عنه. هكذا ترك بن لادن السودان حرًا (حيث جرده مضيفوه قبل رحيله)، عاد للإقامة في شرق أفغانستان ومنها أطلق في آب/ أغسطس 1996 إعلانًا بالجهاد ضد الولايات المتحدة المتهمة باحتلال الأرض المقدسة في الجزيرة العربية.

في هذا الوقت كانت الاستخبارات الباكستانية تساند الحملات العسكرية لطالبان. هذه المجموعة المتطرفة أطاحت واحدًا بعد الآخر سادةَ الحرب الذين اقتسموا البلاد بعد الانسحاب السوفياتي. استعادة الأمن بوساطة طالبان يصحبه فرض نظام أخلاقي مغالي. رئيسهم الملا عمر أخذ بن لادن تحت حمايته لأنه يجد فيه تصديقًا عربيًا مأمولًا على مشروع طالبان.

في آب/ أغسطس 1998 قامت القاعدة بعمليتين انتحاريتين في الوقت ذاته ضد سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وفي تنزانيا (224 قتيلًا من بينهم 12 أميركي). ردت إدارة كلينتون بإطلاق صواريخ على مناطق يُفترض وجود القاعدة فيها في أفغانستان. خرج بن لادن سالمًا من هذا الوابل من التكنولوجيا الأميركية مما عضد بصورة محسوسة من منزلته. أما في ما يخص الملا عمر فقد دان اعتداء الولايات المتحدة، وتبنى بوضوح استضافته للقاعدة.

الصعود القوي لمنظمة بن لادن يسير بموازاة انبثاق قطر فاعلًا بارزًا في المشهد الدولي. العائلة القطرية الحاكمة آل الثاني تشترك مع آل سعود في المعتقدات الوهابية نفسها، ولكن الأمير حمد الذي انقلب على أبيه واستولى على السلطة في الدوحة في حزيران/ يونيو 1995 قرر أن يؤكد منزلة دولته في مواجهة المملكة العربية المجاورة. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1996 أطلق قناة فضائية يبرز اسمها نوعًا من التحدي: الجزيرة، وهي تعنى بالفعل جزيرة ولكن قبل كل شيء شبه الجزيرة (العربية).

قطر بلد صغير محدود السكان يستثمر طواعية جزءًا من موارده الضخمة في القوى الناعمة، هذه القوى غير المادية التي تجد العربية السعودية صعوبة في استخدامها بحنكة. وحيث إن هذه الأخيرة تدعم تمامًا سلفية متشددة، مركزة حول توصيات ثيابية وغذائية واجتماعية، تلعب قطر بنار السياسة (الحقيقية). وحيث تقرب الرياض من الديكتاتوريين العرب سلفيين ذوي ولاء غير منقوص، تراهن الدوحة على الآراء وعلى عطشها للتغيير ولو كان عنيفًا.

تزايد القنوات الفضائية كسر احتكار الدولة للدعاية في العالم العربي. فمن وقت طويل وسكان البلاد العربية المجاورة لإسرائيل

يسمحون لأنفسهم بمشاهدة قنوات (العدو الصهيوني) للإفلات من اللغة الخشبية لوسائل الإعلام الرسمية. وقد غيرت الهوائيات الموجهة نحو الشمال والقنوات الأوروبية الممارسات الثقافية في بلاد المغرب، لكن الجزيرة أتت بريح جديدة: أخبار ينتجها عرب من الجنسيات كلها لجمهور على مستوى العالم العربي. قناة التلفزيون التي تبث بصورة مستمرة منذ 1998 تصبح صندوق الصوت لكل المستبعدين من النظام السياسي العربي؛ الإسلاميين طبعًا ولكن الجهاديين أيضًا.

هكذا تابع فريق من الجزيرة لأسابيع طويلة بن لادن في أفغانستان. الريبورتاج المعنون (رجل ضد إمبراطورية) تم بثه في حزيران/ يونيو 1999 بالضبط بعد قرار الشرطة الأميركية طلب القبض على بن لادن بمكافأة خمسة مليون دولار. الجهادي المطرود والمزين بلقب (العدو العام رقم 1) صارت له مكانة أيقونة عالمية. معسكرات تدريب القاعدة في شرق وجنوب أفغانستان صارت تستقبل كثيرًا من المتطوعين.

قرر بن لادن والظواهري حينئذ أن يضربا الأرض الأميركية من أجل إثارة ردود انتقامية في صورة تدخل (للعدو البعيد)، ما يزعزع في الشرق الأوسط (العدو القريب)؛ هي عمليات 11 أيلول/ سبتمبر 2001 في نيويورك وواشنطن التي تمت بمساعدة ثلاث طائرات مختطفة (سقطت طائرة رابعة قبل أن تصل إلى هدفها الكابيتول، بل حتى البيت الأبيض)، مات ثلاثة آلاف قتيل.

لم يرد بن لادن إعلان مسؤوليته عن العمليات كي يظهر الرد الأمريكي القادم لا محالة على أنه (عدوان). في المقابل سجل للجزيرة خطابًا من المفترض أن يذاع عند بداية الهجمات الأمريكية على

أفغانستان. وهو بالفعل ما حدث في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2001 ودخل رئيس القاعدة عبر الجزيرة إلى مئات الملايين من البيوت. يضع نفسه في صورة مقاوم يكافح ضد القهر الإسرائيلي في فلسطين وضد الاحتلال الأميركي للجزيرة العربية وهو الذي لم يفعل أي شيء ضد الأولى أو ضد الثانية. هذه صورة جديدة من (الاختطاف الكبير) للنضالات العربية، وهو اختطاف ما كان له أن يتم لولا أن البلد المستهدف في 11 أيلول/ سبتمبر يضفي مصداقية على هذه الأسطورة، وسوف ينجح التلاعب حتى في ما وراء أكثر الطموحات جنونًا لـ (بن لادن).

حروب شاملة

أطلق جورج بوش الابن، منذ خريف 2001 (حربًا شاملة ضد الإرهاب)؛ هذا الإرهاب هو بالتعريف (إسلامي) وعلى الولايات المتحدة أن تقضي عليه في العالم بأسره، وهو طموح يمكن أن ندرك طبيعته الأيديولوجية أكثر من كونها إستراتيجية. ملهمو البيت الأبيض أسيء تسميتهم (المحافظون الجدد)، في حين إن مسارهم ثوري بمعنى الكلمة: حيثما كان بوش الأب يستخدم القوة لإعادة بناء نظام عالمي جديد بوساطة المفاوضات فإن بوش الابن يؤمن بالفضيلة التطهيرية للفعل العسكري، فالديمقراطية سوف تزدهر على أنقاض الطغيان.

مع ذلك فهمت الديكتاتوريات العربية سريعًا مصلحتهم في المشاركة في (الحرب الشاملة) التي تعلنها واشنطن؛ فيشير القذافي إلى أن بلده قد نشرت طلب توقيف دولي ضد بن لادن منذ عام 1998. (متخذو القرار) الجزائريون يؤكدون أنهم كانوا في طليعة الكفاح ضد الإرهاب في أثناء سنوات 1990 ويلومون القادة الغربيين لأنهم

تخلوا عنهم في هذا القتال. ويدين بن علي يد القاعدة في دعم معارضة واضح أنها سلمية. مبارك يعرض مقاولته لإجراء التحقيقات على الأراضي المصرية (وهي في الواقع جلسات تعذيب) مع الجهاديين المشتبه فيهم الذين جمعتهم الولايات المتحدة من سائر أنحاء العالم. عرضت الشرطة السياسية في البلاد العربية كلها خدماتها، بل إن (الجزيرة) أقامت قناة سرية مع CIA الاستخبارات الأميركية لكي ترى من الآن فصاعدًا وثائق القاعدة قبل إذاعتها.

تم قلب طالبان خلال أسابيع عدة في أفغانستان وفرضت الولايات المتحدة رجلها الأمين حامد كرازاي على رأس جمهورية، على الرغم من الأغلبية التي تميل إلى عودة الملكية مع ظاهر شاه. إدارة بوش مصممة على مد (حربها الشاملة ضد الإرهاب) حتى في العراق. ولا يهم ألا شيء يربط صدام بعمليات 11 أيلول/ سبتمبر، تهديد (أسلحة الدمار الشامل) التي من المفترض أن الديكتاتور العراقي يمتلكها تغذي حملة على المستويات جميعها للمحافظين الجدد.

ظن بن لادن والظواهري المحاصرَين في الشرق الأفغاني في كانون الأول/ ديسمبر 2001 أنهما هالكان، ولكن المسؤولين الأميركيين الذين كانوا في عجلة لإنهاء أمرهم مع صدام كانوا مقتنعين أن القاعدة كانت مرحلة وانتهت. أما في ما يخص البنتاغون فقد أزاح طالبان بخسائر محدودة جدًا، ويرفض أن يعرض قواته على الأرض من أجل القضاء على بن لادن والظواهري، اللذين تمكنا بذلك الهرب إلى باكستان المجاورة. دعاية واشنطن وضعت في واجهة المشهد الخطر أبا مصعب الزرقاوي الجهادي الأردني اللاجئ إلى شمالي العراق، من أجل تبرير خطط العمل العسكري في البلاد.

في آذار/ مارس 2003 غزت الولايات المتحدة العراق من

الجنوب، فتركيا رفضت الاشتراك في هذه الحملة. كانت تقود تحالفًا شق بعمق صف الوحدة الأوروبية: بريطانيا العظمى وإسبانيا وإيطاليا وبولندا أعضاء فيه، على الرغم من المعارضة القطعية لفرنسا وألمانيا. نظام صدام الذي استنفدته اثنتا عشرة سنة من العقوبات وحروب الاستنزاف تهاوى سريعًا.

قررت إدارة بوش حينئذ حل الجيش العراقي وأن تطرد من الإدارة الأعضاء القدامى كلهم في حزب البعث. وهذا يعني عمليًا تفكيك الدولة العراقية بما أن الانضمام للبعث في منطقه الشمولي كان ضروريًا لتولي أي مسؤولية. أما في ما يخص العسكريين، وهم غالبًا ذوو خبرة كان يمكنهم أن يعملوا في خدمة (العراق الجديد)، لكنهم أرسلوا إلى منازلهم ومعهم أسلحتهم الشخصية، وامتنعوا عن الكشف عن المخابئ التي نشرها صدام في البلاد كلها.

لم يكتشف الجيش الأميركي ظلًا لأي من (أسلحة الدمار الشامل). في المقابل، سرعان ما واجه تمردً عصيبًا قمعه باستخدام عقوبات جماعية واعتقالات كثيفة. الأغلبية الكبرى من المقبوض عليهم بهذه الطريقة من العرب السنة، وهو ما يزيد من الاستقطاب مع العرب الشيعة ومع الأكراد الذين اتهمهم السنة بالتعاون مع المحتل.

داومت الدعاية الأميركية على التركيز على الزرقاوي الذي تسمح جنسيته الأردنية بنفي الطابع الوطني عن المقاومة العراقية، فبنسبها إلى الزرقاوي ومجموعته هجمات تزيد بعشرة أضعاف عما يقومون به بالفعل، وجهت واشنطن صوب الجهادي الأردني مقاتلين من كل طرف، بما في ذلك ضباط قدامى لصدام. وعى بن لادن بهذا الصعود القوي وفي كانون الأول/ ديسمبر 2004 نصب الزرقاوي للفرع العراقي من القاعدة.

وصف الزرقاوي دخول الولايات المتحدة في قلب الشرق الأوسط (بالفضل) الإلهي[41].

ومن هذه اللحظة بدأ الجهاد ضد أميركا في العراق يجذب متطوعين من أنحاء العالم كلها. وهكذا تمت إقامة مسار يبدأ من الحي الباريسي بوت –شومون حول الجهادي التونسي الفرنسي أبو بكر الحكيم. استخبارات الأسد المتهمة بتوريط الولايات المتحدة في العراق حتى لا تهتم بسورية، كانت تساند حرب العصابات الجهادية وتسهل العبور من دمشق للمتطوعين، ومن بينهم فرنسيون.

في الجزائر اختفت الجماعة الإسلامية المسلحة، ولكن الانشقاق عنها GSPC تخصص في تجنيد مجاهدين في شمال أفريقيا كلها مصممين على القتال في العراق. هذه العولمة الناجحة جعلت المجموعة السلفية للدعوة والجهاد تتحول إلى القاعدة في المغرب الإسلامي (AQMI). أما في ما يخص فدائيي القاعدة في شبه الجزيرة العربية (AQPA) فقد قامت في المملكة العربية السعودية بحملة إرهابية طويلة النفس. وفشلهم الذي حسم في ربيع 2005 أعطى وزنًا أكبر للزرقاوي في فلك الجهاديين.

أحدث الاحتلال الأميركي للعراق (ثقبًا أسود) حقيقيًا مهيأ لكل انحراف، ولا سيما أن المنطق الفدرالي للدستور الذي تم تبنيه في تشرين الأول/ أكتوبر 2005 قد زاد من الفجوة بين السنة والشيعة والأكراد. ومسيحيو العراق الغائبون عن هذه المساومة الثلاثية فروا بكثافة من أرض إبراهيم هذه التي كانت وطنهم منذ ألفي عام. بعد موت الزرقاوي في 2006 تحول الفرع المحلي للقاعدة إلى (دولة العراق الإسلامية).

---

(41) Cité in Gilles KEPEL (dir.), Al-Qaida dans le texte, PUF, Paris,2005, p.381.

تمت زعزعة أمن القارة الأوروبية بصورة مستمرة بسبب تفاقم الفوضى العراقية؛ في آذار/ مارس 2004 قُتل 191 شخصًا في عملية جهادية في مدريد، وفي تموز/ يوليو 2005 ستة وخمسون شخصًا (من بينهم أربعة انتحاريين) لقوا مصرعهم في هجمات انتحارية في لندن. هذه المأساة أقنعت أخيرًا القادة البريطانيين أن يوقفوا (لندنستان).

في إسرائيل يشدد شارون رئيس الوزراء على تشبيه قمع الانتفاضة بالحرب الشاملة على الإرهاب. وصرح قائلًا: «لكلٍ بن لادن الخاص به، وعرفات هو بن لادن الخاص بنا»[42]. أعاد الجيش الإسرائيلي احتلال الضفة الغربية في آذار/ مارس 2002. وعرفات المحاصر في قصره بمدينة رام الله لم يخرج سوى في تشرين الأول/ أكتوبر 2004 نظرًا لمرضه الشديد تم ترحيله إلى فرنسا ومات بعد ذلك بقليل في مستشفى عسكري، وخلفه محمود عباس رئيسًا للسلطة الفلسطينية ورئيسًا لمنظمة التحرير الفلسطينية.

اعتبر شارون أنه خنق الانتفاضة في الضفة الغربية، ولكنه قرر إشعال النار في غزة حيث لم تخفف التصفية المنهجية للمسؤولين الفلسطينيين (مثل الشيخ ياسين في آذار/ مارس 2004) من الانتفاضة المسلحة. وفي المنطق الأحادي نفسه الذي اتبعه باراك في لبنان في 2000 أجلى شارون عن قطاع غزة في 2003 العسكريين والمستوطنين الإسرائيليين. وجد الرئيس عباس نفسه أمام الأمر الواقع، ولم تتأخر ميليشيات حماس في شغل المواقع المتروكة.

واجه شارون حينئذ معارضة من جزء من ليكود، وجذب جزءًا آخر إلى حزب جديد كاديما، الذي شكله مع العضو العمالي القديم شيمون بيريز. ترافقت إعادة تشكيل المشهد السياسي الإسرائيلي

---

(42) Cite in the Guardian, 14 septembre 2001

بالنسبة إلى شارون بالاعتقاد في سد الطرق كلها في اتجاه الدولة الفلسطينية، وفك الارتباط بين الضفة وغزة لم يكن يومًا تامًا بهذه الصورة. وأطلق الجيش الإسرائيلي منذ تشرين الأول/ أكتوبر 2005 عدوانًا على قطاع غزة باسم مثير هو (العود الأبدي).

(الحرب الشاملة ضد الإرهاب) تبدو هكذا تتغذى على ديناميتها الخاصة من دون أن تظهر في الأفق أي إمكان لوضع حد لهذا الصراع. ولكن في اليمن ذهب المنطق المنحرف لهذه الحرب الشاملة إلى أقصى مداه. علي عبد الله صالح سيد اليمن الموحدة منذ 1990 يغذي علاقات قديمة مع الشبكات الجهادية، التي ساندته في قتاله ضد اليمن الجنوبي الماركسي. نجح صالح في أن يتسلل إلى الحملة الكوكبية للولايات المتحدة محولًا الجزء الأكبر من المعونة الأميركية لمصلحة الحرس الخاص الذي يتولاه ابنه أحمد علي صالح. هكذا تشهد اليمن تقدمًا موازيًا للتمويلات المضادة للإرهابيين والتهديد الجهادي مع إعادة تشكيل القاعدة على أرضه في شبه الجزيرة العربية لتمتد في عام 2009 في العربية السعودية المجاورة.

شيراك في مواجهة الأسد، الأب والابن

جرى انتخاب شيراك في آذار/ مارس 1995. أطلق بعد ذلك بعام في القاهرة خطابًا مؤثرًا عن إعادة تأسيس (السياسة العربية الكبرى) التي تنوي فرنسا أن تجعلها «سياسة مشتركة لأوروبا بأسرها»[43]. يظل جوهر هذه السياسة موضع تحديد لأن ما هو أساسي بالنسبة لشيراك موجود في مكان آخر، وهو علاقته الخاصة برفيق الحريري الذي لم يتردد

(43) خطاب جاك شيراك في جامعة القاهرة في 8 ابريل 1996

في أن يسميه «أخ»[44]. يرأس الميلياردير اللبناني الحكومة من 1992 إلى 1998 ثم من 2000 إلى 2004، وبقي هو المستفيد المباشر من إعادة التوازن المؤسس لصالح رئيس الحكومة (السني) على حساب رئيس الجمهورية (الماروني) الذي أغلقت به (الحرب الأهلية) فيما بين 1975-1990. كان شديد الارتباط بالعربية السعودية لأن ثروته هناك، قَبِل الحريري أيضًا مبدأ الوصاية السورية.

هنا سوف يقلب شيراك منطق ميتران في الدفاع عن سيادة لبنان في مواجهة سورية. فقد سعى على العكس إلى التعاون مع حافظ الأسد تعاونًا قويًا لدرجة أنه سوف يخفف من القبضة السورية على لبنان. وهكذا استقبل في الإليزيه في تشرين الثاني/ نوفمبر 1999 الوريث المعين للطاغية السوري ابنه بشار الأسد. الرئيس الفرنسي يصادق إذن على خلافة من نوع وراثي الذي يشبهه بالانتقالات الملكية للسلطة التي تمت قبل ذلك بشهور لصالح عبد الله الثاني في الأردن ومحمد السادس في المغرب.

كان شيراك هو الرئيس الغربي الوحيد الذي كان حاضرًا في جنازة حافظ الأسد. في حزيران/ يونيو 2000 صادق البرلمان بصورة طارئة على تعديل للدستور يخفض السن الأدنى للرئاسة من أربعين إلى أربع وثلاثين سنة وهو عمر بشار الأسد، الذي تولى في الوقت نفسه منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة والسكرتير العام لحزب البعث، وتم انتخاب الوريث رئيسًا للجمهورية بنسبة 97.3 بالمئة من الأصوات قبل أن يعلن خطته في «التغيير في إطار الاستمرارية والاستقرار»[45].

(44) JacquesCHIRAC, Le temps présidentiel. Mémoires. Nil, Paris, tome II, p. 518

(45) Cité in Jean-Pierre FILIU, Le Nouveau Moyen-Orient, Fayard, Paris,2013.

لم تنجُ أى مؤسسة سورية، لا الدولة ولا الحزب ولا الجيش، من هذه المأساة الهزلية للانتقال الوراثي. وشيراك بإيعاز من الحريري يعتقد مع ذلك بإرادة (الإصلاح) لدى الأسد الشاب. في إطار التعايش السياسي المشترك مع رئيس الوزراء لينويل غوسبان فرض شيراك في حزيران/ يونيو 2001 زيارة رسمية فخمة إلى باريس للرئيس السوري الشاب، بعد أربعة أشهر من عقد مؤتمر دولي عن إعادة بناء لبنان تم في العاصمة الفرنسية.

الرئيس شيراك من حيث المبدأ على استعداد للمشاركة في (الحرب الشاملة ضد الإرهاب)، بل إنه كان ينوى إرسال قوات برية إلى أفغانستان، ووقف تصميم لينويل غوسبان حائلًا ضد الانخراط الفرنسي وجعله قاصرًا على الإسهام في حملة جوية ضد طالبان. وبعد أن تحرر من ضغوط التعايش السياسي المشترك في أيار/ مايو 2002 رعى شيراك في باريس مؤتمرًا ثانيًا لممولي لبنان أكثر كرمًا من السابق.

حذّر الحريرى (أخاه) شيراك من التدخل الأميركي في العراق الذي سوف يسهم في تقوية النظام السوري ويقضى على الاستقلال المتآكل أصلًا للبنان. كرس الرئيس الفرنسي جهده بلا تحفظ لمهمة الحصول على الموافقة بالإجماع للقرار 1441 لمجلس الأمن في الأمم المتحدة حول نزع السلاح في العراق في تشرين الثاني/ نوفمبر 2002 (بل حصل من بشار الأسد على تصويت لصالح القرار). ولكن هناك حيث يرى شيراك إطارًا لحل الأزمة العراقية لا يعده (الصقور) الأميركيون سوى درجة في التصعيد ضد صدام. ازداد التوتر بين باريس وواشنطن مع تبادل تصريحات قاسية بين وزيري الخارجية للدولتين في الأمم المتحدة في شباط/ فبراير 2003، وصرح شيراك بعد ذلك بقليل أنه سوف يستخدم الڤيتو ضد كل قرار أميركي عن تدخل عسكري في العراق، وتجاوز جورج دبليو بوش ذلك كله

فأطلق الغزو خارج إطار الأمم المتحدة.

الموقف الفرنسي أعطى شيراك شعبية واسعة في العالم العربي فلقد تفادى فعليًا أن تتحول (الحرب الشاملة ضد الإرهاب) إلى (صدام الحضارات) بين كتلتين محددتين: الإسلام والغرب. ولكن باريس على الرغم من ذلك لم تستطع منع الكارثة العراقية، وسوف يستخدم شيراك للأسف صدقيته الكبرى لا من أجل الإصلاح في العالم العربي، ولكن ليدعو إلى الإبقاء على الوضع كما هو. في كانون الأول/ ديسمبر 2003 كان الرئيس الفرنسي ضيفًا على بن علي، وأعلن أن «الحق الأول من حقوق الإنسان هو أن يأكل، وأن يعالج، وأن يتلقى تعليمًا ويجد سكنًا. إذا كان هذا هو أول حقوق الإنسان. فمن وجهة النظر هذه ينبغي إذن الاعتراف أن تونس متفوقة على بلاد كثيرة»[46]. هذه التصريحات أثارت احتجاجات المدافعين عن حقوق الإنسان، حتى إن محامية تونسية قامت حينئذاك بإضراب عن الطعام حوالى شهرين ضد التعسف البوليسي.

في 2001 انضم الديكتاتوريون العرب للحرب الشاملة ضد الإرهاب، لكي يجعلوا معارضيهم يعادلون في عيون الولايات المتحدة التهديد الجهادي. مع الغزو الأميركي للعراق في 2003 بدأوا يتهمون هذه المعارضة نفسها بأنها تعمل لصالح واشنطن. هذا الخطاب الصاخب بوجه خاص في مصر مبارك لا يجد إلا تشجيعًا من مجاملات شيراك: «لا يمكن أن نفرض إصلاحات، ينبغي الإقناع، ينبغي الحوار»، هذا ما قاله في أسبوع الثمانية الكبار المخصص للعالم العربي في حزيران/ يونيو [47]2004.

(46) تصريح صحفي لجاك شيراك في تونس في 3 ديسمبر 2003

(47) تصريح صحفي لجاك شيراك في سي أيلاند 9 يونيو 2004

اغتيال رفيق الحريري في قلب بيروت في شباط/ فبراير 2005 بالنسبة لشيراك هو واحد من أسوأ الصدمات في حياته[48]. خلال العامين الأخيرين له في قصر الإليزيه كان مهووسًا بالرغبة في معاقبة الأسد على هذه الجريمة التي يعتبره مسؤولًا عنها بصورة مباشر. لقد انحاز لصالح (ثورة الأرز) وهي الحركة الواسعة للاحتجاج الشعبي التي أجبرت الجيش السوري على مغادرة البلاد بعد تسعة وعشرين عامًا من الاحتلال.

على الرغم من ذلك استمر الأسد في التحكم في لبنان ولا سيما باغتيال المثقفين وأعضاء البرلمان. صدق شيراك حينئذ الأسطورة الجيوسياسية عن (الهلال الشيعي) الذي يمتد من إيران إلى العراق إلى سوريا الأسد وإلى حزب الله اللبناني (في حين إن الحلف السوري الإيراني يقوم منذ 1979 على توجهات إستراتيجية مشتركة وليس على تقارب طائفي، فالعلويون ليسوا شيعة كما أن المورمون ليسوا بروتستانت).

فازت حماس في الانتخابات الفلسطينية في كانون الثاني/ يناير 2006 مستثمرة الانسحاب الإسرائيلي من غزة والرفض الشعبي لفساد فتح. شيراك المهووس بالعلاقات بين الأسد والإسلاميين الفلسطينيين (على الرغم من أنهم سنة) فرض (خطأ متشددًا) على الاتحاد الأوروبي، اقتضى الأعضاء الخمسة والعشرون كي يتعاملوا مع حماس أن تعترف بإسرائيل وباتفاقات أوسلو الثانية (الاعتراف الضمني بالاشتراك في الانتخابات عُدّ غير كافٍ) وأن تتخلى عن العنف.

هل كان شيراك يأمل في إجبار حماس على قبول تنازلات مثل تلك

---

(48) JacquesCHIRAC, Le temps présidentiel. Mémoires, op. cit., p. 518

التي عمل على تحقيقها ميتران خلال مدتي رئاسته مع منظمة التحرير الفلسطينية؟ رفض الإسلاميون الفلسطينيون قطعيًا هذه الإملاءات، ومن ثم فالسكان معاقبون بسبب انتخابهم. تصاعد التوتر بين فتح وحماس حتى وصل إلى حرب أهلية حقيقية في غزة. في حزيران/ يونيو 2007 قامت كتائب القسام بطرد أنصار الرئيس عباس من غزة، وأصبحت سلطته إذًا قاصرة على الضفة الغربية. حماس في غزة وقيادتها التي يقاطعها الاتحاد الأوروبي وقعت تحت حصار قاس من جانب إسرائيل (على الأرض وفي البحر وفي الجو) ومن جانب مصر (على الحدود البرية مع سيناء).

حينما ترك شيراك الرئاسة في 2007 لم يقدم لخليفته نيكولا ساركوزي سوى شخصية واحدة أجنبية هي سعد الحريري، ابن رفيقه ووريثه. صحيح أن عائلة الحريري سوف تستضيف بكرم شيراك وزوجته في شقة فاخرة على كورنيش فولتير، أما ساركوزي فله مداخله الخاصة مع الخليج، ولا سيما قطر التي سوف يكون تدخلها المالي مهمًا في تصفية كثير من الملفات الحساسة.

هذه التسويات الصغيرة والكبيرة التي تتوه فيها الحدود بين المسؤوليات العامة والحياة الخاصة، معروفة لدى القادة العرب الذين وصلت قلة احترامهم لفرنسا إلى درجة غير مسبوقة. القذافي المدعو في زيارة رسمية إلى باريس في كانون الأول/ ديسمبر 2007 زاد من الاستفزازات الإعلامية (التي ذهب فيها إلى حد أن تلتقط له صورة مع مانيكان ترتدي ملابس ماريان)، أما بشار الأسد فقد دعا إلى المشاركة في عرض عيد 14 تموز/ يوليو 2008، صحيح أنه قبل أخيرًا في اليوم السابق على وصوله أن يتبادل السفراء مع لبنان.

وفي مجال مجاملة الديكتاتوريين مع الاستثناء الكبير لسورية لم

يفعل ساركوزي سوى السير على خطى شيراك. في نيسان/ إبريل 2008 حل ساركوزي ضيفًا على العقيد بن علي فأكد أن ((حالة الحرية تتقدم))[49] في تونس التي كانت تحت رقابة مشددة بصورة لم تشهدها من قبل. هذا الولاء الأعمى من جانب شيراك وساركوزي لسيد قرطاج كان مزعجًا لدرجة أن الديبلوماسيين الفرنسيين الذين يعملون في تونس يحذرون منذ سنوات باريس من فساد عائلة بن علي وهشاشة هذه الدولة البوليسية[50].

هذان العقدان كانا بالفعل عقدي رجال المطافئ مشعلي الحرائق. منذ 1967 كان حافظ الأسد أستاذًا في لبنان في فن إشعال الحرائق ليضع نفسه كملجأ وحيد. واستمر ابنه بشار في المهنة حيث يقوم بإشعال صراعين بالوكالة الأول (الدولة الإسلامية في العراق) ضد الولايات المتحدة، والثاني صراع حزب الله في لبنان الذي يتباهى ((بالنصر الإلهي))[51] بعد حرب الثلاثة والثلاثين يومًا التي واجه فيها إسرائيل في صيف 2006.

ترك بوش الأب عملية تصفية المقاومة العراقية في عام 1991 خوفًا من أن تتحالف يومًا مع إيران. بوش الابن بتدميره لدولة صدام في العراق فتح البلد بالمعنى الحرفي للقوة ذات الصور المتعددة لإيران. قضى نوري المالكي الذي أصبح رئيسًا للوزراء خمسة وعشرين عامًا في المنفى بين طهران ودمشق، ولكن إخلاصه الأول يذهب إلى الجمهورية الإسلامية في إيران، هذا الأصولي الشيعي الذي يقلق من

---

(49) تصريح نيكولا ساركوزي في تونس في 28 ابريل 2008

(50) انظر في هذا الشأن الشهادة الاستثنائية لسفير سابق لفرنسا في تونس:

Yves Aubin DE LA MESSUZIÈRE, Mes annees Ben Ali, CERES, Tunis. 2011

(51) Cité in Jean-Pierre FILIU, L'Apocalypse dans l'islam, Fayard, Paris,2008 ,p.227.

دعم الأسد للانتفاضة السيئة.

الغزو الأميركي للعراق زرع القاعدة في قلب الشرق الأوسط، حاشدة الشبكات الجهادية في الإقليم كلها. لا يرغب الديكتاتوريون العرب في تصفية تهديد يضمن لهم ريعًا إستراتيجيًا قادمًا من واشنطن. (متخذو القرار) الجزائريون على الرغم من رعب (العقد الأسود) وثلاث مدد رئاسية متتالية لبوتفليقة (التصالحي) يرون بلدهم منشأ القاعدة في المغرب الإسلامي التي سوف يضرب مقاتلوها بعد ذلك في الساحل كله.

فرنسا والعالم لم يعودا يهتمان بالعرب إلا برعاية استقرار النُظُم التي تقمعهم. مسار السلام يدور في الفراغ في الشرق الأوسط، ولا يتم ذلك من دون تغذية شريحة من ذوي الأعمال والبيرقراطيين هم (سادة السلام) بينما الاستيطان الإسرائيلي يتقدم، وفلسطين غزة تتحدى الأخرى في رام الله. مبارك في مصر والقذافي في ليبيا وصالح في اليمن يجهزون أبناءهم للجلوس على العرش الرئاسي، على نموذج الديكتاتورية الوراثية لآل الأسد في سورية.

على الرغم من ذلك هنا سترجع الشعوب العربية لدينامية النهضة وفي وسط دهشة الجميع انتفضوا من أجل حقوقهم.

7

ثورة وثورة مضادة

2015–2011

ديكتاتوريون وجهاديون، القتال نفسه

في أثناء جيلين متتالين؛ جيل الاختطاف الكبير وجيل التخليات، أنجزت المجتمعات العربية ثورة صامتة، فقد قاموا بالفعل بتحولهم الديموغرافي في أربعة عقود، في حين إنه امتد على مدى أربعة قرون في أوروبا الغربية. تونس من الآن فصاعدًا (تنجب) أطفالًا أقل من فرنسا. لقد انفجر النموذج الأبوي مع أخوة بين اثنين أو ثلاثة الذين وصل مستوى تعليمهم في المتوسط إلى مستوى أعلى من الآباء.

التحسن التدريجي للخدمات العامة الأساسية ولا سيما في التعليم والصحة ساعد على شكل من التحرر النسوي، أولًا بالوصول إلى المدرسة الثانوية والجامعة ثم بالدخول إلى سوق العمل. هذا المتغير الحاسم في نقص الخصوبة، والضامن في المقابل، لانبثاق العائلات (الحديثة) التي تستثمر في تعليم الأولاد الذين هم أكثر نقدًا للقيم التقليدية عن الطاعة والمحافظة.

فرض (آباء الأمة) من بورقيبة إلى ناصر إلى بومدين سلطتهم الزعامية على جماهير تبدو كأطفال في علاقتهم بالزعيم القوى. ولكن الهالة الوطنية حول هذه الوجوه (الأبوية) لم تكن مصطنعة، في حين إن إسهام بن علي أو مبارك في النزعة الوطنية محل خلاف. كما إن الخلافة الملكية التي اختبرها الأسد في سورية فهي تعرض البلاد إلى

افتراس الورثة (ثروة رامي مخلوف، ابن عم رئيس الدولة، والمستفيد الأكبر من "لبرلة" الاقتصاد، قدرت بمليار دولار).

يصطدم الشباب عام 2010 في العالم العربي بمأزق قاس، على الرغم من تعليمهم العالي وتطلعاتهم المواطنية يرون حلمهم في حياة (عادية) يضيع بسبب التدخلات المتكررة للنظام أو (الحكم) - الكلمة نفسها (نظام) تشير إلى المفهومين في العربية. الحزب المهيمن وجهاز الاستخبارات المرتبطون تمامًا من أجل التحكم في السكان هم أيضًا وسطاء إجباريون من أجل مواصلة الدراسة أو الانخراط في مهنة أو تأسيس شركة.

(النظام) ليس إذًا محض جهاز قمع سياسي، وإنما يتسلل إلى أكثر الفضاءات حميمية لاسترقاق الفرد، وجعله مدينًا بكفاياته الخاصة، وإجباره على التسول كي يعيش أو على الفساد كي يكسب راتبًا. (آباء الأمة) قد قننوا نهب ثروات الأمة لصالح عصبتهم وتابعوهم، الذين ازدادوا طمعًا بسبب أرباح (الخصخصة) استحوزوا إراديًا على عمل رعاياهم.

مئة مليون من الشباب العربي من المغرب إلى الخليج يقتسمون بدرجات مختلفة حرمانًا، يمكن القول بأنه لم يحدث يومًا أن اجتمع هذا المستوى العالي من التعليم وهذا الحرمان من العمل (بطالة الشباب العربي أكثر مرتين من المتوسط العالمي). هذا الحرمان يعبرون عنه بلغة مشتركة العربية الحديثة النمطية التي تعممها برامج التعريب والقنوات الفضائية والإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي. لم يتحدث العرب يومًا في ما بينهم باللغة العربية بأفضل مما هو الآن من أقصى العالم العربي إلى أقصاه.

اجتمعت الشروط إذًا من أجل إعادة انطلاق الفوران الثقافي للنهضة في القرن التاسع عشر، ولكن بنسب تتزايد إلى ما لانهاية

بوساطة التكنولوجيا الجديدة. كان صوت العرب قلب الدعاية الناصرية ينتشر باسم سيد القاهرة بين سكان ليس في وسعهم سوى الاستماع من دون أن يكون لديهم القدرة على الرد. حطمت القنوات الفضائية هذه القوقعة بتحبيذها تعدد المصادر، ولكن أيضًا في تعايش غير مسبوق بين المعلقين، وقد أزالت الشبكات الاجتماعية العقبات الأخيرة من فضاء من الاتصال الأفقي بين العرب.

سيدي بوزيد في جنوب تونس تظهر كثافة لا مثيل لها من التحكم السياسي والبوليسي في السكان، على الرغم من ذلك سوف يبدأ النظام هنا في التشقق منهارًا تحت ثقله الخاص. في 17 كانون الأول/ ديسمبر 2010 محمد بوعزيزي، بائع جوال عمره 26 سنة، حاول بلا جدوى استعادة عربته التي صادرتها الشرطة، بلا شك لأنه لم يكن لديه ما يمكنه من دفع الإكرامية المتعارف عليها، ومن اليأس أشعل بوعزيزي النار في نفسه أمام قسم الشرطة.

هذه التضحية ستهز الشباب العربي؛ اندفعت جماهير بأكملها في احتجاج مفتوح. ولا نعرف إن بدأ طرح هذا الشعار للمرة الأولى ولكن سمع صداه في أنحاء تونس كلها وخارجها: (الشعب يريد إسقاط النظام)، هو في آن نظام سياسي فاسد ونظام عام خانق. لم يكن لدى المتظاهرين سوى حجارة وعصي ولكن هدفهم واضح: الثورة.

أيام الغضب

في 14 كانون الثاني/ يناير 2011 فر بن علي إلى السعودية. نظامه لم يصمد شهرًا في وجه الاعتراض الشعبي الذي رفض الجيش قمعه. السابقة التونسية أثارت المناضلين في مصر الذين تمكنوا أن يحتلوا سلميًا ميدان التحرير في قلب القاهرة في 25 كانون الثاني/ يناير. أمل

مبارك في تهدئة الأمر عندما عين عمر سليمان رئيس الاستخبارات نائبًا للرئيس وكلفه بالتفاوض مع أحزاب المعارضة (ومن بينها الإخوان المسلمين).

هذه المناورات التي تنتمي إلى عهد سابق لا تؤدي إلى تحجيم الدينامية الثورية التي تنتشر في أنحاء مصر كلها، صدى بعيد لثورة 1919. في 11 شباط/ فبراير 2011 أعلن سليمان استقالة مبارك الذي طار إلى شرم الشيخ في سيناء، وأصبحت السلطة في يد المجلس الأعلى للقوات المسلحة. يتعلق الأمر تكنيكيًا بانقلاب كما في الجزائر في كانون الثاني/ يناير 1992. ولكن بينما سعى (متخذو القرار) إلى قلب بن جديد كي يدفنوا قرار صناديق الانتخاب، أكد الجنرالات المصريون التزامهم بإجراء انتخابات سريعًا.

أعلنت (أيام الغضب) في غمار سقوط الديكتاتور المصري. في 14 شباط/ فبراير 2011 المعارضون في البحرين احتلوا ميدان اللؤلؤة في قلب العاصمة المنامة، وطالبوا بدستور ديمقراطي من دون اعتراض على الأسرة المالكة آل خليفة (السنية في بلد أغلبيتها شيعية). في اليوم نفسه، احتل المحتجون اليمنيون ميدان التحرير في صنعاء، لكنهم طردوا بوساطة أنصار صالح، وتجمعوا في ميدان الجامعة الذي غيروا اسمه إلى (ميدان التغيير).

السلطة الجزائرية تلعب التهدئة برفع حالة الطوارئ على الرغم من أن التظاهرات تم تفريقها بقسوة في العاصمة. في 17 شباط/ فبراير 2011 تحولت الاحتجاجات التي تم تنظيمها منذ اليوم السابق في بنغازي إلى مواجهات بين وحدات مسلحة ((موالية)) و((ثوريون)). في 20 شباط/ فبراير دارت مسيرات في المغرب كله للمطالبة بالإصلاح (وليس "لإسقاط") النظام. نزع محمد السادس الفتيل الأكثر تهديدًا

لهذه الاحتجاجات التي يسير فيها الإسلاميون جنبًا إلى جنب مع (اليساريين) فقرر إعداد دستور جديد.

الملك عبد الله ملك السعودية أعلن من جانبه عن (باقة) اجتماعية بـ26 مليار دولار يتبعها (برنامج) ثان بـ93 مليار دولار، الذي كان من أثره أن يئد في المهد (يوم الغضب) الذي كان متوقعًا في 11 آذار/ مارس 2011 في المملكة الوهابية. السعر العالي للبترول يسمح بالفعل بشراء السلام الاجتماعي، نظرًا إلى صعوبة غزو القلوب. وانطلقت الجزائر بعد ذلك بقليل في إعادة توزيع كريمة لجزء من عائدات الوقود.

في 14 آذار/ مارس 2011 ألف جندي سعودي و500 شرطي أميري دخلوا إلى البحرين بطلب من خليفة، مع عشرات المدرعات. حتى وإن كانت هذه القوات الأجنبية لا تشارك بصورة مباشر في القمع، فإنها سمحت لقوات الأمن أن تستعيد ميدان اللؤلؤة بعد يومين. يتعلق الأمر بثورة مضادة من النمط التقليدي. انخرطت السعودية والإمارات من أجل خنق الاحتجاج الديمقراطي وقد ساعدهم في ذلك المزايدة الشيعية في إيران، وهي الضربة القاصمة لمعارضة تريد أن تكون وطنية وليست طائفية.

سقط (جدار الخوف) في 15 آذار/ مارس 2011 في سورية. مدينة درعا على حدود الأردن كانت معقلًا تاريخيًا للبعث، ولكن التعذيب والإهانات التي تقوم بها قوات الأمن أثارت تظاهرات تم قمعها بقسوة. في 18 آذار/ مارس ارتكب القناصة الحكوميون مجزرة في ميدان التغيير في صنعاء. أثار حمام الدم هذا حدوث انقسامات داخل القوات المسلحة، حيث انضم سلاح المدرعات الأول إلى معسكر الثورة.

فهم الأسد وصالح أن لهم مصلحة في التضخيم من التهديد الجهادي لكي ينزعوا المصداقية ويقسموا معارضة ذات نزعة سلمية مفرطة. أفرج الأسد عن مئات من المعتقلين الراديكاليين الذين سرعان ما التحقوا بصفوف (الدولة الإسلامية في العراق)، في الوقت ذاته يقوم شبيحته بقتل الآلاف وتعذيب و(إخفاء) الناشطين السلميين. وذهب صالح إلى أبعد من ذلك عندما أمر قواته في أيار/ مايو 2011 أن تترك للجهاديين مدينة زنجبار التي أصبحت (عاصمة) (لإمارة إسلامية) في اليمن الجنوبي.

الحيلة الليبية

ساند الرئيس ساركوزي حتى آخر لحظة بن علي غير المحتمل، ويتهم بالطبع في ذلك الدبلوماسيين الفرنسيين الذين بحسب ما يقتضي واجب التحفظ والولاء الجمهوري لا يستطيعون الرد على هجومه الغادر. استقالة مبارك أقنعت أخيرًا الرئيس المتعجل في تغيير موقفه. كان عليه مرة أخرى أن يلمع ليس بأن يفهم الانتفاضة الديمقراطية الجارية، ولكن أن يدفع بنفسه إلى مقدمة المشهد.

في آذار/ مارس 2011 جاءته مكالمة تليفونية من برنارد هنري ليفي في مهمة كلف بها نفسه في بنغازي، قدمت له مبرر هذا الانقلاب. أعلن برنارد هنري ليفي على هاتفه المحمول اسم رئيس المجلس الوطني الانتقالي CNT مصطفى عبد الجليل. وبلاتردد دُعي عبد الجليل إلى باريس في صحبة برنارد هنري ليفي، وأعلن ساركوزي أن فرنسا تسحب اعترافها الدبلوماسي بنظام القذافي ويمنحه المجلس الوطني الانتقالي. هذه اللفتة الثورية الأصيلة كان الأفضل لها أن تساندها رؤية إستراتيجية بدلًا من حسابات تكتيكية. لأن ساركوزي يظن بعد عام من الرئاسة أن هالة قائد الحرب سوف تزيد من شعبيته

في فرنسا، وخاب أمله سريعًا. ما إن تدخل حلف الأطلنطي بمبادرة من باريس كي يتفادى حمام دم في بنغازي تورطت الحملة الغربية في حرب مواقع بين الموالين والثوريين على خليج سرت.

التدخل في ليبيا من قبل الإمارات المتحدة وفرنسا وبريطانيا، وكذلك تدفق الصحافيين من مصر المجاورة سوف يجمع بصورة دائمة بين صورة حرب أهلية وعنف بلا حدود مع انتفاضة ديمقراطية في العالم العربي. ظلت التظاهرات التي تتوالى في اللحظة نفسها في سورية حتى تجمع مئات الآلاف من المتظاهرين في حماة في تموز/ يوليو 2011 سلمية، على الرغم من القمع الدموي لنظام الأسد.

بينما لم يكن لدى أوروبا والعالم من عيون سوى لرؤية سيارات النصف نقل المسلحة بإفراط في الصحراء الليبية، كان التونسيون يرمون الأساسات لجمهورية ثانية من خلال حوار بين الأحزاب الوطنية كلها، تقدميين وإسلاميين، وبتنظيم انتخابات لتكوين لجنة إعداد الدستور. في مصر فرض المجلس العسكري مسارًا أقل تشاركية، مع مساندة الإخوان المسلمين، وبدأ مناضلو التحرير في الدعوة إلى ثورة ثانية، في حين إن الدينامية التي ولدت من سقوط مبارك مستمرة في هز البلاد. حتى المغرب الهادئة منحت نفسها دستورًا جديدًا الذي مثله مثل النصوص التأسيسية كلها، لا قيمة له إلا بالصيغ التطبيقية.

في 20 آب/ أغسطس 2011 تجاوز المتمردون الليبيون عن الخطة الجامدة لحلف الأطلنطي، وأطلقوا الانتفاضة في طرابلس. سقطت العاصمة في أيام عدة. في 15 أيلول/ سبتمبر جاء نيكولا ساركوزي وديفيد كاميرون للاحتفال بالتحرير في طرابلس نفسها. على الرغم من ذلك ما زال القتال مستمرًا في المعاقل الموالية لبني وليد وسرت، حيث لم

يقتل القذافي إلا بعد شهر. ولكن كان من الملح للرئيس الفرنسي أن يقلب صفحة الأزمة الليبية وهو منتصر.

لم تنخرط الولايات المتحدة بقيادة أوباما في العملية الليبية إلا على مضض وبإلحاح من فرنسا، وقد ابتكرت بهذه المناسبة التعبير الموتر (القيادة من الخلف). يريد ساركوزي من الآن فصاعدًا أن يكرس نفسه للعمل على حملته في الانتخابات الرئاسية، بعيدًا جدًا عن الانقلابات العربية كلها. في هذه الأثناء توصلت المعارضة السورية إلى ائتلاف أغلب اتجاهاتها في مجلس وطني سوري، يجمعهم اقتضاء رحيل الأسد والطموح إلى سورية ديمقراطية يرمز لها العلم ذو النجوم الثلاث للقتال ضد المستعمر.

نحن الآن في تشرين الأول/ أكتوبر 2011، وهذا المجلس الوطني السوري أكثر شفافية وتمثيلًا من المجلس الوطني الانتقالي الليبي، ولكن ساركوزي وأقرانه الغربيين يرفضون أن يمنحوه الاعتراف الذي قدموه للثورة الليبية في أيام عدة، بل على العكس وضعوا شروطًا للتجانس تسير ضد الرسالة التعددية للمجلس الوطني السوري. ونحن هنا نشعر بالحنين اليعقوبي تجاه حركات التحرير من نوع جبهة التحرير الوطني الجزائرية و(فيت كونغ) ذوات التراتبية المعروفة. في حين إن المجلس الوطني السوري ليس ثوريًا إلا لأنه متنوع، وهذا التنوع هو الذي سمح له بعد ستة أشهر من انطلاق الثورة السورية إلى تحجيم الاتجاه إلى التسليح، الذي كان يشجع عليه القمع الهمجي للنظام. لقد أغلقت فرنسا أفقًا بديلًا كان سيسارع من حركات الانشقاق عن الجهاز السياسي والعسكري للأسد. كما إنها أيضًا تركت المجلس الوطني السوري لمزايدات العرابين الأجانب. كانت تركيا وقطر تحبذان الإخوان المسلمين في حين إن السعودية كانت تدفع بأتباعها السلفيين.

أصبح الشرخ الذي فتح عام 1990-1991 بين الإسلاميين والسلفيين هوة عميقة زاد منها الصراع بين قطر والسعودية. وبما إن هاتين الدولتين وهابيتان يبين أن الأمر يتعلق بخلاف سياسي وليس ديني، يضع في تعارض نموذجين للحكم: العائلة المالكة السعودية المستندة إلى مؤسسة دينية للدولة الوهابية من أجل أن توقف على نحو أفضل الاحتجاج الإسلامي الداخلي؛ الإمارة (ما بعد الحداثية) في قطر تبني شرعيتها (أوف شور) في مساندة شبكة عابرة للقوميات للإخوان المسلمين. إلى هذه المواجهة بين السعودية وقطر أضيفت في ليبيا المواجهة بين الإمارات وقطر من خلال الفصائل الثورية المسلحة.

شهدت الانتخابات التي أجريت في تونس بين تشرين الأول/ أكتوبر 2011 وكانون الثاني/ يناير 2012 انتصار الإسلاميين: حصلت النهضة على 36 بالمئة من الأصوات الخاصة بتشكيل لجنة إعداد الدستور التونسية، وحزب العدالة والتنمية حصل على 29 بالمئة في الانتخابات التشريعية المغربية. وفي الحالتين شكل الحزب الإسلامي حكومة ائتلافية تحت سيطرته. وفي الانتخابات البرلمانية المصرية حصل الإخوان المسلمون على 37 بالمئة في مقابل 25 بالمئة للسلفيين الذين طلبت منهم السعودية المشاركة في اللعبة السياسية على عكس مذهبهم العازف عن السياسة. ظل المجلس العسكري مع ذلك يحتكر السلطة التنفيذية ولم تكن الحكومة مسؤولة إلا أمامه وليس أمام البرلمان.

لم يكن مطلوبًا أكثر من هذا كي يشرع المعلقون الذين حيوا بأطراف شفاههم (الربيع العربي) في الحديث عن (الخريف الإسلامي) أو (الشتاء الأصولي). على الرغم من ذلك كان معروفًا أن الأحزاب الإسلامية فازت بالانتخابات الأولى في تونس الديمقراطية، بسبب قدم تنظيمهم وقدرتهم

على تعبئة التصويت المعارض. ما هو محل رهان كما هو الحال في الأردن 1989-1993 هو الانتخابات التالية، حيث تكون صدمة الوقائع والممارسة الحكومية مميتة بالنسبة للإسلاميين.

على الرغم من ذلك، فالفرنسيون المتعجلون مثلهم مثل رئيسهم، أداروا ظهرهم سريعًا للعرب الذين لم يلبوا توقعاتهم. وها نحن نعود إلى السجال الأبدي عن توافق الإسلام أو تعارضه مع الديمقراطية، في حين إن السؤال لم يكن عن نزعة إسلاموية إلى حد ما (معتدلة)، بل كان السؤال عن قدوم الديمقراطية في العالم العربي.

الفخ اليمني

المملكة العربية السعودية القلقة من تفاقم الأزمة في اليمن تستفيد من استضافة الرئيس اليمني المصاب في محاولة اغتيال في حزيران/ يونيو 2011 كي تفرض عليه حلًا انتقاليًا. الاتفاقية التي تم توقيعها في أيلول/ سبتمبر تنص على انتقال للسلطة إلى نائب الرئيس عبد ربه منصور هادي، في مقابل حصانة كاملة لصالح وأقاربه، وبقاء أبناءه وأبناء إخوته في مواقعهم في جهاز الأمن والحفاظ على وزن حزب الرئيس.

هذه (الصيغة اليمنية) المفترض أنها انتقال سلس رفضها التحالف الثوري وقبلتها أحزاب المعارضة ومن بينها حزب (الإصلاح) الفرع اليمني من الإخوان المسلمين. تفويض السلطات حدث في شباط/ فبراير 2012 ولكن أعقبه مجزرة في ثكنة في ضاحية زنجبار، حيث بدا أنهم تركوا للجهاديين بوساطة أنصار صالح. في أيار/ مايو الاحتفال بالعيد الوطني انقلب إلى حداد بسبب مجزرة إرهابية في قلب صنعاء، وهنا أيضًا كان من المستحيل أن تتم من دون تواطؤ من الأجهزة العليا.

دان الرئيس هادي التواطؤ بين سلفه والقاعدة في شبه الجزيرة العربية. أقال أبناء إخوة صالح ثم ابنه نفسه أحمد علي صالح رئيس الحرس الجمهوري، وهو ما أثار في آب/ أغسطس 2012 هجمات مباشرة على وزارة الدفاع. صمد هادي وأطلق دعوة إلى حوار وطني انتهى في كانون الثاني/ يناير 2014 إلى ميثاق ملزم لمجمل القوى السياسية. ميليشيات الحوثيين النشطة في أقصى شمال البلاد رفضت الإقرار بنتائج هذا الحوار على الرغم من مشاركتها فيه.

يمثل الحوثيون صورة متطرفة من تأكيد الهوية الزيدية. هذا الانشقاق عن الشيعة الذي كان يسم إمامة اليمن منذ ألف عام. هم أول منظمة سياسية للمذهب الزيدي بوصفه كذلك حيث كان الفاعلون الزيديون في ما قبل يستخدمون الصلات القبلية، أو على غرار الرئيس السابق صالح الأحزاب الجمهورية. ابتداء من 2011 انطلقت إيران في حملة كثيفة لمساندة الحوثيين وتشكيل ميليشيا مكافئة لحزب الله في لبنان اسمها (أنصار الله).

رأى عبد الله صالح أن رهانه على القاعدة قد فشل في إفساد الانتقال الديمقراطي، ولهذا استدار إلى أعدائه القدامى (أنصار الله) الذين فتح لهم أقاربه أبواب صنعاء في أيلول/ سبتمبر 2014. لوحقت الشخصيات الثورية في أرجاء العاصمة ووضع الرئيس هادي تحت وصاية المتمردين أتباع إيران. ولم يخف أنصار الله مساندتهم غير المشروطة لبشار الأسد.

تمكن هادي من الهرب في شباط/ فبراير 2015، وشكل في عدن حكومته الشرعية الوحيدة المعترف بها من الجماعة الدولية. قامت السعودية بدعمه في حين إن إيران تساند بلا تحفظ أنصار الله. في بلد لم يشهد أبدًا صراعًا بين السنة والشيعة طوال تاريخه توافرت الشروط

إذًا لمواجهة بين الحوثيين والجهاديين، التي ينوي صالح الخروج منها فائزًا باللعب على الحبلين. وكما هو الحال في البحرين ولكن بصورة عكسية أسهمت إيران والسعودية في دفن ثورة اليمن.

أنصار الله المتحالفين بصورة صريحة مع اتباع صالح شنوا هجومًا مباغتًا على تعز في آذار/ مارس 2015، ويتقدمون بصورة خطرة باتجاه عدن. الرئيس هادي لجأ آنذاك إلى السعودية الموجودة على رأس تحالف مكون من تسعة بلاد (من بينها الإمارات وقطر والكويت والبحرين ومصر والأردن والمغرب) التي أطلقت حملة قصف جوي على اليمن. وسرعان ما سببت هذه الغارات خسائر كبيرة للسكان المدنيين.

علي عبد الله صالح سيد اليمن من 1978 حتى 2012 يطرح نفسه بوصفه حلًا: فهو راسخ بقوة في معسكر الحوثيين محتفظًا في الوقت نفسه بتواطئه مع الجهاديين. ابنه أحمد علي صالح يحتفظ انطلاقًا من أبو ظبي التي عمل فيها سفيرًا لليمن من 2012 إلى 2015 باتصالات قوية بالدول الأعضاء في التحالف المؤيد لهادي. نُظمت تظاهرات في صنعاء لصالح ترشيح أحمد علي صالح للرئاسة في انتخابات رئاسية مبكرة. هكذا تجهز عشيرة صالح عودتها للسلطة والثمن خراب البلاد.

في ما يخص قبائل شمالي اليمن التي توصف بأنها (نصيرة للملكية) وساندتها السعودية في أثناء حرب 1962-1970، هي الآن مقترنة بإيران (الشيعية) وتحاربها السعودية. هذه العلاقة التاريخية تبين عدم قدرة مقولات التفسير الطائفية (سني/ شيعي) على التوعية بدينامية الثورة المضادة التي تعمل في العالم العربي.

(الصيغة اليمنية) التي نستطيع اليوم أن نقيس نتائجها الكارثية، تم الاحتفاء بها في شتاء 2013 بوصفها الحل المثالي من قبل الدبلوماسيين من كل جانب. أسطورة الانتقال بلا ألم والمستبد حسن النية قد جرى تصديقها لطرد منغصات عدم اليقين الثوري. هذا السيناريو نفسه تم تبني صلاحيته في سورية بوساطة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، لحذرهم البالغ بسبب المغامرة الليبية وقلقهم بسبب الصعود القوي لميليشيات الجيش السوري الحر.

(الصيغة اليمنية) تشكل أساس (الخطة العربية للسلام) التي نشرت في كانون الأول/ يناير 2012، بعد بعثة مراقبة من جامعة الدول العربية في سورية التى تتسم بتصاعد القمع الحكومي على الجهات جميعها. هذه (الخطة) تنص على نقل السلطة لنائب الرئيس فاروق الشرع المكلف بأن يفتح خلال أسبوعين حوارًا مع المعارضة بهدف تشكيل حكومة اتحاد وطني، وأن تقام تحت إشرافها انتخابات حرة في أجل لا يتجاوز شهرين.

أيدت المملكة السعودية هذه الخطة بلا تحفظ، في حين إن روسيا وإيران لم تغيرا شيئًا من مساندتهما غير المشروطة لبشار الأسد. دانت قطر «التصريح بالقتل»[52] الذي يمثله بالنسبة للمستبد السوري فيتو روسيا والصين في مجلس الأمن في شباط/ فبراير 2012 في اليوم نفسه الذي تم فيه قصف حكومي على الأحياء المتمردة في حمص أدي إلى موت 200 من السكان.

تمت الخطة العربية للسلام الموافقة عليها بعد ذلك بقليل بمعدل 137 صوتًا مقابل 12 في الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكُلِّف كوفي

(52) Février 2012Le Monde, 7

عنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة كي يشرف على تنفيذها. ولكن عنان بإعادته لترتيب الأولويات ذهب إلى الأسد في دمشق في آذار/ مارس 2012 لكي يحصل على الموافقة المسبقة للديكتاتور. الانتقال السياسي إذن أصبح محليًا حتى إنه لم يعد سوى «مسار سياسي مفتوح يقوده السوريون، بصورة يلبي فيها التطلعات والاهتمامات المشروعة للشعب السوري»[53].

بعثة من 300 مراقب من الأمم المتحدة في سورية لم تستطع التوصل إلى وقف إطلاق النار أو الإفراج المعلن عنه للسجناء السياسيين. في صباح 20 أيار/ مايو 2012 تم اكتشاف 108 قتيل مدني من بينهم 49 طفلًا مقتولين في قرية الحولة القريبة من حمص. مراقبو الأمم المتحدة بعد أن نبههم المقاتلون الثوار انتظروا حتى يحصلوا على التصريح الرسمي من محافظ حمص قبل أن يذهبوا إلى المكان.

طردت فرنسا والولايات المتحدة ودول أخرى سفراء سورية، وأغلقوا ممثلياتهم في دمشق. وهذا هو أول قرار مهم في السياسة الدولية لفرانسوا هولاند الذي جاء بعد نيكولا ساركوزي، ولكن لم تقطع أي دولة غربية علاقتها الدبلوماسية مع نظام الأسد الذي استمر في تمثيل سورية في الهيئات الدولية. مسيرة عنان والأمم المتحدة انتهت إذًا إلى الأمل في أن ينوي الجلاد من تلقاء نفسه أن يفك الخناق عن ضحاياه. من هنا كان الرفض الذي يزداد حدة لعنان من قبل المعارضة السورية.

الأسد، علاوة على رأفة منظمة الأمم المتحدة، يمكنه أيضًا أن يعتمد على كراهية الإرهاب الجهادي عند الآراء العربية والغربية.

---

(53) تصريح رئيس مجلس الأمن بالأمم المتحدة في 21 مارس 2012

جبهة النصرة تشكلت فرعًا سوريًّا للدولة الإسلامية في العراق، كانت تقوم بعمليات انتحارية مدمرة تدينها بالإجماع المعارضة السورية ويحييها أيمن الظواهري خليفة بن لادن على رأس منظمة القاعدة الذي قتل في أيار/ مايو 2011 في باكستان.

مجازر جديدة ارتكبها النظام وأتباعه، وهم في الغالبية قادمون من الأقلية العلوية، تغذي الميل المزدوج للعسكرة والطائفية (السنية) للمعارضة. المجلس الوطني السوري الضعيف بسبب غياب الاعتراف الدولي لا يستطيع أن يفرض نفسه على الجيش السوري الحر، الذي يكد لكي يحتفظ بالتحكم في المجموعات المسلحة المختلفة. كل رئيس محلي ينظم نفسه في الواقع كي يضمن التمويل وتسليح فصيله، وهو ما يسهم في آن في تجذير الميليشيا وعدم قدرتها على القيام بعمليات شاملة. هذا الخلط يتفاقم بسبب التدخلات غير المنسقة للرعاة الخصوصيين في الخليج أو الإسلاميين السعوديين أو السلفيين الكويتين، على خلفية ندية مستمرة بين الرياض والدوحة.

في تموز/ يوليو 2012 تركت الانتفاضة السورية مكانها لدوار الحل العسكري، وأطلقت هجومًا موازيًا على دمشق وحلب. المعارك في الوسط العمراني تتسم بعنف بالغ، ولكن خطوط المواجهة تستقر تدريجًا بين حلب الغربية (موالون) وحلب الشرقية (ثوار)، في حين إن النظام يتحكم بصرامة في العاصمة نفسها على الرغم من وجود معاقل للثوار في حزام الضواحي.

حذر الرئيس أوباما الرئيس السوري في آب/ أغسطس 2012 من تجاوز (الخط الأحمر) الذي يمثله استخدام الأسلحة الكيماوية. ويفهم الأسد تمامًا أنه لو احترم هذا الشرط فكل شيء مباح: فقد لجأ بعد ذلك إلى المدفعية الثقيلة وإلى القصف الجوي، بل حتى إطلاق

صواريخ سكود، مداها 300 كيلومتر. ولكن أسوأ أنواع التدمير نتجت عن براميل الحاويات المملوءة بمادة TNT المحملة بـحبيبات معدنية، وتطلق من ارتفاع منخفض بوساطة طائرات محمية بسبب غياب السلاح المضاد للطائرات لدى الميليشيا.

رفض البنتاغون أن يعطي التمرد هذا النوع من السلاح وحتى صواريخ مضادة للمدرعات كان قاطعًا، بدافع أن هذه الترسانة يمكن أن تقع في يد جهاديي النصرة. وامتد هذا الرفض إلى حلفاء الأطلنطي ولا سيما فرنسا. كانت الصحافة الغربية تضج مع ذلك بالأنباء عن (تسرب) حول الدعم المفترض للاستخبارات الأميركية أو الأوروبية للانتفاضة السورية وهي طريقة من جانبي المحيط الأطلنطي لتبرير سلبيتهم العلنية. الفصائل المسلحة نفسها لا ترى شيئًا يأتي، وهو ما كان بالطبع في جانب الجهاديين في الميدان. تحويل المجلس الوطني السوري إلى (ائتلاف) موسع في تشرين الثاني/ نوفمبر 2012 لم يصاحبه تقدم ديبلوماسي محسوس بالنسبة للمعارضة السورية.

على الرغم من ذلك قلقت إيران من عدم قدرة نظام الأسد، مع تصاعد كمي وكيفي، على استرداد جزء على الأقل من الأرض المفقودة. قوات الحرس الثوري الوحدة النخبوية للنظام الإيراني، عملت حينئذ على إعادة تنظيم قوات الكوماندوز السورية في حرب عصابات مضادة بدت أخيرًا فعالة. في هذا الفاصل سمح تدخل حزب الله بصورة مباشرة للنظام بالتقدم في المنطقة الإستراتيجية التي تقع في ما بين حمص والحدود اللبنانية.

كانت الرقة في وادي الفرات مخصصة (كمدينة مفتوحة) بوساطة الفصائل المسلحة لغايات النقل والإمداد. في آذار/ مارس 2013

قطعت جبهة النصرة هذا الحلف الضمني، واستولت على المدينة. بعد ذلك بشهر في حركة استعراضية جديدة تم إعلان (الدولة الإسلامية في العراق والشام) المشار إليها في العربية بداعش. أبو بكر البغدادي رئيس الجماعة منذ 2010 فشل في إخضاع حلفائه من النصرة: فهؤلاء قدموا أنفسهم على أنهم الفرع السوري من القاعدة، ليس من باب الولاء للظواهري أكثر منه من باب الخروج على البغدادي.

المعارضة الوطنية ومشروعها في سورية الجديدة هم ضحية هذا الاستقطاب الطائفي بين حزب الله الشيعي والجهاديين السنة المنقسمين بين داعش والنصرة. المالكي رئيس الوزراء العراقى المجاور، من جهة أخرى، توصل بسبب نزعته الطائفية الفظة إلى استثارة انتفاضة سنية، استفادت منها داعش في الحصول على هوامش للتدخل في الغرب والشمال في العراق لاعبين على الجانبين من الحدود مع سورية.

ظن الأسد أنه سيوجه ضربة النهاية للائتلاف الثوري بقصف ضواحي دمشق في 21 آب/ أغسطس 2013 بقنابل كيماوية مختلطة مع قذائف معتادة. مات 1400 شخص على الأقل في هذه الغارات التي على الرغم من ذلك لم تقض على المعسكر المعادي للأسد. أعدت واشنطن وباريس ولندن ضربة تستهدف نظام الأسد، على الأقل لأنه تجاوز (الخط الأحمر) الذي أعلن عنه البيت الأبيض قبل عام. على الرغم من ذلك تمهل أوباما في اختيار اللحظة المناسبة للتنفيذ، واضعًا هولاند في موقف حرج، إلا إن واشنطن وموسكو عقدتا اتفاقًا حول نزع السلاح الكيماوي من سورية بوساطة الأمم المتحدة. نددت المعارضة السورية بالخيانة، مبينة أن الأغلبية الساحقة من ضحايا الأسد قُتلوا بأسلحة تقليدية، بل تحت التعذيب. نددت داعش بنفاق الخطاب الغربي عن حقوق الإنسان، وتصاعد الجهاد ولا سيما القادم من أوروبا شهد تقدما متضاعفًا.

قررت الفصائل المسلحة في سورية في كانون الثاني/ يناير 2014 أن تطلق (ثورتها الثانية) هذه المرة ضد داعش التي طردتهم خارج ضواحي حلب وإدلب. رد فعل نظام الأسد كان بتكثيف حملته في القصف بالبراميل للأحياء المتمردة في حلب التي نزل عدد سكانها من مليون إلى 300 ألف ساكن، بسبب النزوح إلى تركيا المجاورة. الائتلاف الثوري بقتاله على جبهتين، الأسد وداعش، قد تخلت عنه الولايات المتحدة التي تحلم باتفاق شامل مع روسيا يشغلها فيها النووي الإيراني أكثر من الأزمة السورية.

استفاد البغدادي كثيرًا من هجمات الأسد ضد القوات المضادة للجهاديين وأفاد من قسوة المالكي ضد المعارضة السنية في العراق. في حزيران/ يونيو 2014 استولت داعش على مدينة الموصل، ووضعت يدها على مئات المليارات من الدولارات ومن الأسلحة الأميركية بسبب انسحاب الجيش العراقي. في الشهر الثاني أعلن البغدادي نفسه (الخليفة إبراهيم) وبدا في جمع البيعة من الوسط الجهادي كله، على الرغم من أزمات الاختيال عند الظواهري. في آب/ أغسطس قرر أوباما أخيرًا أن يطلق حملة قصف جوي ضد داعش في العراق، ومدها إلى سورية في أيلول/ سبتمبر.

هذه الحملة التي يتم فيها التنسيق بصورة غير مباشرة مع دمشق وطهران تلائم دعاية داعش التي لا تكف عن إدانة التحالف بين الصليبيين (الغربيين) والزنادقة (الشيعة والعلويين). آلاف الجهاديين الذين قتلوا تحت القصف الجوي الأميركي تم تعويضهم بشكل كبير لدى داعش بالانطلاقة الاستثنائية للتجنيد، جُذِبوا على مواقع التواصل الاجتماعي بوساطة منظور الجهاد المعادي لأميركا.

على الأقل 220000 شخص قُتلوا في أثناء أربع سنوات أولى من

الأزمة السورية. ونصف السكان اضطروا إلى ترك منازلهم، ونزحوا إما إلى داخل البلاد أو لجؤوا إلى الخارج. الخراب الذي تعرضت له الآثار الثقافية والبنية التحتية رهيب، إلا إن (الائتلاف الثوري) استمر في تصميمه على التخلص من داعش والأسد الذي يسانده بشدة حزب الله وإيران (التي تتكفل بالحراسة الشخصية للمستبد). فرنسا في ظل رئاسة هولاند تنبذ كلًا من الجلادين الاثنين للشعب السوري، لكنها معزولة في داخل الديمقراطيات الغربية التي بعد أن تخلت عن المعارضة السورية تسعى اليوم إلى إعادة العلاقات مع طاغية دمشق.

الطريق التونسي والمأزق المصري

الملاحظة المقارنة لتطور تونس ومصر ابتداء من خريف 2011 غنية بالمعارف عن الإرث المعاصر للنهضة. تونس مهد أول دستور عربي في عام 1861 لم تنتخب سوى مرة واحدة خلال ثلاث سنوات التي مرت بعد بن علي، وكان ذلك لانتخاب لجنة لوضع الدستور التي تبنت في كانون الثاني/ يناير 2014 النص المؤسس للجمهورية الثانية. مصر مسرح التحديث السلطوي من جانب الخديوية في القرن التاسع عشر أخضعت للاستفتاء ثلاثة دساتير متتالية (وذات تناقضات هائلة) خلال ثلاث سنوات أعقبت سقوط مبارك.

الشرعية الدستورية بقيت مركزية في تونس، وقد انتهى الأمر بأن فرضت نفسها، ليس بلا أزمات ولا ألم بالنسبة إلى الإسلاميين والقوميين. في مصر ظلت تعريف الدستورية يتم بوساطة المحكمة الدستورية العليا التي شكلها مبارك، وقضاتها من النظام القديم قد انتهوا في حزيران/ يونيو 2012 إلى حل البرلمان الأول الناتج عن انتخابات حرة. المبدأ الدستوري المفرغ من مضمونه الديمقراطي

لم يعد سوى حجة تستخدمها القوى التي تتنافس على التحكم في الدولة.

الإخوان المسلمون الذين التحقوا مؤخرًا، وعلى الهامش، بالثورة ضد مبارك اختاروا تحالفًا مع المجلس العسكري ضد الشباب المحتج، وألقوا بقواهم كلها في المعركة الرئاسية التي تم الفوز بها بفارق ضئيل في حزيران/ يونيو 2012 لصالح مرشحهم (محمد مرسي) برصيد 51٫7 بالمئة من الأصوات. ظن مرسي أنه أخضع المجلس العسكري بأن أقال بعد ذلك بشهرين رئيسه. ولكن تصعيد عبد الفتاح السيسي وزيرًا للدفاع ورئيسًا جديدًا للمجلس العسكري يبرز جيلًا جديدًا من الجنرالات أكثر خبرة بالسياسة (وأكثر حنكة) من سالفيهم الذين كانوا مغيبين في ظل هيمنة مبارك.

بنى السيسي لنفسه رصيدًا على حساب سياسة مرسي المنحازة إلى أنصاره بشدة. وهو كان المكلف بالحوار مع الشباب الثوري في داخل المجلس العسكري (بوصفه رئيسًا للاستخبارات العسكرية) فأعاد فتح قنوات مع المناضلين الذين أطلقوا في نيسان/ أبريل 2013 حركة تمرد لتمييزها من (الثورة)، المصطلح الذي لا يحبذه. توالت تظاهرات عملاقة يحميها الجيش (بل الطيران أيضًا) ضد مرسي أول رئيس منتخب ديمقراطيًا في مصر تمت إطاحته أخيرًا في تموز/ يوليو 2013 بوساطة انقلاب عسكري.

في منتصف آب/ أغسطس 2013 لقي حوالى ألف شخص مصرعهم في القاهرة في تشتيت الاعتصام المؤيد لمرسي بوساطة قوات الأمن. لم يكن مصادفة، فالسيسي والأسد يراهنان بالفعل على التحول المضاد للثورة في الرأي العام الغربي، مع بقائهما مسكونين مثل (متخذي القرار) الجزائريين من قبلهم بتخيل (القضاء) على الاحتجاج الإسلامي.

وكما كان الحال في الجزائر في (العقد الأسود)، وفي سورية التي دمرها الأسد، هذا (القضاء) لا يؤدي إلا إلى تقوية الإسلاميين الذين هم بصورة لا تقارن أكثر تهديدًا لكل حياة سياسية وثقافية جديرة بهذا الاسم. أنصار بيت المقدس يتحكمون من الآن فصاعدًا في جزء كبير من سيناء ويقومون بعمليات في قلب القاهرة وفي دلتا النيل، قبل أن يعلنوا التحاقهم بداعش. علاوة على ذلك ليسوا هم المجموعة الوحيدة الجهادية في المدن المصرية.

انتُخِب السيسي رئيسًا بنسبة 97 بالمئة من الأصوات في أيار/ مايو 2014، أيام عدة قبل أن يكتفي الأسد بنسبة أكثر تواضعًا هي 89 بالمئة. أمكن للسيسي أن يعتمد على المساندة المالية من العربية السعودية والإمارات اللتين دفعتا ثلاثين مليار دولار[54] لمصر خلال ثمانية عشر شهرًا أعقبت إطاحة مرسي. التحفز ضد الإخوان المسلمين، وتصفية الحسابات مع الدوحة تفسر هذا (الشيك على بياض) الذي قدمته الرياض وأبو ظبي.

ووجد الرئيس في القاهرة أيضًا في ليبيا المجاورة وسيلة لضمان هذه المساعدات، وضيفه المحلي خليفة حفتر يضع تحت مصطلح (إرهابي) كل من يعارضه، في حين إنه لا يتردد في إعادة تدوير بعض الموالين للقذافي. وعلى الحدود المصرية في طبرق يقوم بغارات يدعمها أحيانًا طيران القاهرة أو أبو ظبي، وهو الأسلوب الذي لا يؤدي إلا إلى تضخيم التهديد الجهادي بحسب المنطق المنحرف المستخدم ضد داعش في سورية.

تونس على الرغم من ركودها الاقتصادي، وتناقضاتها الحية أحيانًا، لا تعتمد مثل مصر على ريع قادم من الخليج (أو تدفعه

(54) «L’affaire Sissileaks qui embrasse le Caire» BenjaminBARTHE, Le Monde,4mars2015

الولايات المتحدة باسم السلام مع إسرائيل)، مؤسساتها صلبة، وبعد الانتصار القومي في الانتخابات الرئاسية وكذلك في التشريعية في خريف 2014، وافق الإسلاميون على المشاركة بوصفهم أقلية في حكومة إنقاذ وطني. بالتأكيد التهديد الجهادي يبقى واقعيًا في تونس، ولكن الاغتيالات السياسية المتواترة في 2013 استثارت صحوة (الحوار الوطني). يتضح أن العوامل الكبار الثلاثة لتونس في انتقالها الديمقراطي هي قدرة الإسلاميين والقوميين على التعاون لمصلحة البلاد (مستبعدين كابوس "القضاء" المتبادل) وقوة الحركة الاجتماعية (ولا سيما الاتحاد التونسي للشغل) الذي (صمد في وجه قمع بورقيبة) ودفاع القوات المسلحة (عن المؤسسات).

وللمفارقة فإن المروجين العسكريين للثورة المضادة العربية كلهم مقتنعون بحقهم الفطري في حكم بلد يستولون على موارده.

(مصلحة النظام) تعلو على ((مصلحة الدولة))[55]، وتتم التضحية بالسكان بلا شفقة من أجل مصالح الجماعة الحاكمة. هذا السيناريو المأساوي منذ عشرين عامًا في الجزائر يأخذ شكل كوارث تاريخية بحجم همجية الثورة المضادة الجارية.

في 25 كانون الثاني/ يناير 2015 جاءت شيماء الصباغ مع مجموعة من حزب التحالف الشعبي الاشتراكي كي تضع باقة من الزهور في ميدان التحرير في ذكرى (شهداء) الانتفاضة المضادة لمبارك. هذه الشاعرة التقدمية عمرها أربعة وثلاثون عامًا، منفصلة عن زوجها وتربي ابنها البالغ خمس سنوات بمفردها، تم قتلها من قبل الشرطة بإطلاق خرطوش في ظهرها، وتجرأ الطبيب الشرعي على أن يقول إن (نحافة) القتيلة هى السبب في وفاتها، لأن غياب الدهون سمح للشظايا أن تصل إلى قلبها ورئتيها. ترك رجال الشرطة

(55) أستعير هذا التمييز الكاشف من أستاذ العلوم السياسية غسان سلامة.

الضحية تحتضر على الرصيف في أثناء قبضهم على رفاقها. في هذا اليوم في العيد الرابع للثورة المصرية سقط سبعة عشر شخصًا آخر برصاص قوات الأمن.

المجزرة الجزائرية في (العقد الأسود) بقيت بحجم (حرب التحرير) الرهيبة في 1954–1962. لكي نجد مجازر يمكن مقارنتها بما ارتكب في القاهرة في 2013 ينبغي العودة إلى المذابح التي تمت في أثناء الحملة الفرنسية في عام 1798. والسابقة الأقرب لفظائع الأسد في سورية هي التدمير الذي ارتكبه تيمور لنك في 1400–1401. وهذا يبين كيف أن الرفض الديكتاتوري للنهضة ليس محض محافظة على الوضع القائم، ولكنه رجوع مطلق إلى أكثر العصور اضطرابًا في التاريخ العربي، مع تدمير الإرث الثقافي الذي رافقها.

المشروع الإجرامى للأسد والآخرين يتجاوز العودة إلى التسلط، حتى القاسى، بل يهدف إلى تجذير الخوف من أي تغيير عميق في حياة مواطنيهم، ومحض ذكر الحرية يطلق فيهم شحنة كهربائية. بثمن هذا التعذيب الجمعي ساند (متخذو القرار) الجزائريون في 2014 المجيء ببوتفليقة إلى العرش الرئاسي على كرسي متحرك.

زبانية ناصر كان يمكنهم أن يكتفوا عام 1954 بأن يهتفوا (لا أحزاب ولا برلمان ولا انتخابات)، بيد أنه في 2015 ينبغي وجود همجية داعش كلها من أجل الأمل في إسكات التطلعات العربية في الحرية، في حين إن الخبرة التونسية تبين أنه ليس هناك أي حتمية في هذا للعنف، لا ريب أنه بالسير على طريق التحرر الفردي والجماعي، المرسوم منذ القرن التاسع عشر بوساطة رواد التنوير العربي يمكن طرد التهديد الهائل للمستبدين والجهاديين، فكل منهما يغذي الآخر.

من شارلي إلى باردو

فكرت الثورة الفرنسية في العرب بوصفهم عربًا في حين إنهم وقتها لم يكونوا يفكروا في أنفسهم إلا بوصفهم مسلمين. رسخت الحملة على مصر ودعم محمد علي من جانب وغزو الجزائر من جانب آخر، العلاقات الفرنسية العربية في مسار طويل من التاريخ المشترك. الرسالة العالمية لفرنسا قادتها إلى استخدام قيمها وكذلك قوتها في هذه المغامرة الجماعية، في حين إن بريطانيا العظمى كانت تحافظ على مسافة بالإدارة غير المباشرة.

حينما فرضت الجمهورية الثالثة بعنف مفرط (الجزائر فرنسية) ربطت مصير بلدنا بمصير العرب. الحماية الفرنسية على تونس والمغرب ثم الانتداب على سورية ولبنان قامت بتقوية هذا الرباط. اختزلت الجمهورية الفرنسية عرب الجزائر إلى مسلمين فقط، بالقطيعة مع مشروع (المملكة العربية) العزيز على نابليون الثالث، لكنها في المقابل في الشرق الأوسط أعلنت رسالتها في حماية (الأقليات) التي كان يعلنها أصلًا ملوك فرنسا.

إضفاء الأسلمة على العرب وهذا الهوس (بالأقليات) مستمر في التأثير الكبير على السجال الفرنسي. وهنا تكمن العقبة الكبرى في الإدراك بكل تعقده التاريخي لحركة التحرير التي تمر في العالم العربي منذ 2011. دخل الديكتاتوريون العرب في أزمة مستمرة، من طبيعة ثورية، بسبب رفضهم المطلق للاعتراف بالشعب بوصفه مصدرًا للشرعية.

هذا الصراع الذي هو من الآن فصاعدًا يبقى هو نفسه الذي كان منذ قرن مضى في نهاية الإمبراطورية العثمانية: يتعلق الأمر بحق الشعوب العربية في تقرير المصير، وهو الحق الذي أنكره التدخل الاستعماري وصادره في أثناء عمليات الاستقلال (الاختطاف الكبير)

للنظم العسكرية، والحق الذي انتهك بوساطة (الكيل بمكيالين) في الصراع من أجل الكويت، ووطأته الأقدام باسم ضرورة (الحرب الشاملة ضد الإرهاب)؛ حق حادت عن مساره منظمة الأمم المتحدة بسبب تمثيل الشعب من خلال الأنظمة التي تقهره.

لا يطالب العرب أساسًا سوى بحقوقهم وعلى الفرنسيين أن يفهموهم أكثر من أي شعب آخر. هذه الحقوق كانوا يقاتلون من أجل الحصول عليها في إطار الحدود الاستعمارية، لأنه في هذا الإطار حتى وإن كان مصطنعًا ومستنكرًا يجري نضالهم السياسي منذ عقود. ولكن المستبدين المستعدين لكل تطرف كي يخنقوا الاحتجاج قد غذوا الغول الجهادي الذي يطيح بالحدود كي ينشر مشروعه الشمولي.

من 7 إلى 9 كانون الثاني/ يناير 1925 ضرب القتلة ثلاث مرات في باريس: شارلى إبدو، ورجال شرطة، ومحلًا يهوديًا، كل هدف من أهدافهم يسعى إلى أن يستثير انتقامات دموية من المسلمين في فرنسا، بحسب المنطق الذي يتبعه الزرقاوي في العراق كي يستبقي السنة رهائن. القتلة ولدوا في فرنسا وتحولهم إلى الجهاد تم في إطار (شبكة بوت شومون) النشطة منذ 2005–2004. وعلينا أن نتذكر أن شبكة بوت شومون قد ساعدتها استخبارات الأسد وأن الأخوين كوارشي تدربا في معسكر يمني للقاعدة في عام 2011 الذي ترك فيه الديكتاتور صالح مناطق واسعة من بلاده للجهاديين كي يتمسك على نحو أفضل بالسلطة في صنعاء.

الرجل المهم في هذه الحملة الإرهابية على أوروبا والمسؤول أيضًا عن التوسع الدموي لداعش في شمال أفريقيا: بوبكر الحكيم، عمود من أعمدة شبكة بوت شومون، كان مدرب الشقيقين كوارشي قبل أن يعلن عن مسؤوليته عن الجرائم السياسية التي كادت في 2015

أن تطيح بالانتقال التونسي. مغتالو الحرية هم أنفسهم في باريس وتونس. ضربوا مرة ثانية في 18 آذار/ مارس 2015 وقتلوا 221 شخصًا ومن بينهم أربعة سياح فرنسيين في متحف باردو. داعش التي أعلنت مسؤوليتها عن المجزرة استفادت في كل مكان من الدعم المباشر وغير المباشر من الثورات المضادة العربية.

على الرغم من هذا الجمع من الأعداء، فإن تراجيديا التحرر العربي تستثير في مجتمعنا رفضًا أكثر من التعاطف، ويأسًا أكثر من البصيرة. وهذا تحديدًا هو الهدف الذي يسعى إليه اليوم المستبدون العرب على غرار (متخذى القرار) الجزائريين قبل ذلك بعقدين: دفعنا إلى ألا نرغب بعد ذلك في أن نرى ولا أن نفهم المآسي التي تحدث في جنوب المتوسط، وجعل الشعور بالرعب يشل فهمنا، وإضفاء السواد في ظل المجازر على المعنى العميق لهذا القتال من أجل الحريات.

قرنان من التاريخ المشترك بين الفرنسيين والعرب، تجعل منا واهمين إذا ما حاولنا أن ندفع ببلدنا في برج من العاج يمكنها أن تتأمل منه بدون مخاطرة صور القهر كلها التي يرتكبها الطغاة المنفلتون والجلادون الجهاديون. ما زال هناك مآسٍ وأحزان، والعمليات التي تم كشفها على أرضنا في هذه الأسابيع الأخيرة تبين أن التهديد الإرهابي قد استقر ليستمر.

على الرغم من ذلك، فلينته هذا الكتاب بنبرة أمل.

فى كل مكان في العالم العربي يكد الطغاة كي يجدوا نفسًا ثانيًا وعرابوهم الأجانب يستنفدون طاقتهم في تمويلهم بخسارة بالغة، سقوط سعر البترول إلى النصف بين صيف 2014 وشتاء 2015 يهدد التوازن الداخلي للأنظمة المستبدة التي كانت قد اعتمدت على أسعار الوقود المرتفعة من أجل كسر صدمة الموجة الثورية في عام

2011. أما فيما يخص شمولية داعش فسوف تنتهي بالتراجع أمام واقع لا يمكنه إخضاعه لعقيدتها. (خلفاء الرعب) من أجل أن يفرضوا سلطتهم الرهيبة على سكان معارضين يجندون آلافًا من الأتباع الأوروبيين.

ولكن الجلادين لا يرحلون من تلقاء أنفسهم، يلزم إسقاطهم. العرب يعرفون ذلك ونظرًا لغياب مساعدتنا، فهم يتطلعون على الأقل إلى تفهمنا، وهو ما ينطبق على مستقبلنا المشترك وحريتنا في آن معًا.

مراجع مختارة

Gilbert ACHCAR, Le Peuple veut. Une exploration
radicale du soulèvement arabe, Actes Sud, Paris,2013.

Sofia AMARA, Infiltrée dans l'enfer syrien, Stock, Paris, 2014.

Jacques BERQUE, Les Arabes, Actes Sud, Paris, 1997.

Hamit BOZARSLAN, Sociologie politique du Moyen-
Orient, La Découverte, Paris, 2011.

François BURGAT et Bruno PAOLI (dir.), Pas de printemps pour la Syrie, La Découverte, Paris, 2013.

Ignace DALLE, La Ve République et le Monde arabe,
Fayard, Paris, 2014.

Alain DIECKHOFF, Le Conflit israélo-arabe, Armand
Colin, Paris, 2011.

Alain GRESH et Dominique VIDAL, Les Cent Clefs du Moyen-Orient, Pluriel, Paris, 2011.

Nicolas HENIN, Jihad Academy, Fayard, Paris, 2015.

Béatrice HIBOU, La Force de l'obéissance, La Découverte, Paris, 2006.

Samir KASSIR, Histoire de Beyrouth, Fayard, Paris, 2003.

Gilles KEPEL, Le Prophète et le Pharaon, Folio, Paris,

2012.

Rashid KHALIDI, Palestine, histoire d'un État introuvable, Actes Sud, Paris, 2007.

Farhad KHOSROKHAVAR, Radicalisation, Maison des

sciences de l'homme, Paris, 2014.

Hala KODMANI, La Syrie promise, Actes Sud, Paris,

2014.

Stéphane LACROIX, Les Islamistes saoudiens, PUF,

Paris, 2010.

Henry LAURENS, La Question de Palestine, I. L'Invention de

la Terre sainte, Fayard, Paris, 1999 ; II.Une mission sacrée de civilisation, Fayard, Paris, 2002 ;

III. L'Accomplissement des prophéties, Fayard,

Paris, 2007 ; IV. Le Rameau d'olivier et le Fusil du

combattant, Fayard, Paris, 2011.

Jonathan LITTELL, Carnets de Homs, Gallimard,

Paris, 2012.

Pierre-Jean LUIZARD, Le Piège Daech, La Découverte,

Paris, 2015.

Ziad MAJED, Syrie, la révolution orpheline, Actes Sud,

Paris, 2014.

Luis MARTINEZ, Violence de la rente pétrolière. Algérie,Libye, Irak, Presses de Sciences Po, Paris, 2010

Daniel RIVET, Le Maghreb à l'épreuve de la colonisation, Pluriel, Paris, 2010.

Maxime RODINSON, Les Arabes, PUF, Paris, 2002.

Eugene ROGAN, Histoire des Arabes, Perrin, Paris,

2013.

Bernard ROUGIER, L'Oumma en f ragments, PUF,

Paris, 2011.

Olivier ROY, Le Croissant et le Chaos, Hachette, Paris,

2007.

Michel SEURAT, L'État de barbarie, PUF, Paris, 2012.

Benjamin STORA (avec Edwy PLENEL), Le 89 arabe,

Stock, Paris, 2011.

Pierre VERMEREN, Maghreb, les origines de la révolution démocratique, Pluriel, Paris, 2011.

تم ذكر أحدث طبعة لكل كتاب وكذلك الترجمات الفرنسية
للمراجع العربية.

هذا الكتاب

أثار واحد من اعتقالات الكواكبي في حلب عام 1899 تظاهرة احتجاج نسائية، وهي بلا شك الأولى من نوعها في العالم العربي الإسلامي. الشيخ المتمرد يرى أن (الانحطاط الشرقي) يرجع إلى الاستبداد، وعلاجه هو الحرية، وأفضل صورة لها هي الديموقراطية الدستورية. كان انخراطه لصالح فصل ما هو سياسي عن ما هو ديني حاسمًا ((دعونا نحل حياتنا الدنيا بتحييد الأديان التي تقوم بدورها في العالم الآخر)). دعونا نجتمع حول هذه الكلمات((تحيا الأمة، يحيا الوطن ونحيا أحرارًا وذوي كرامة)).



جان بيير فيليو

أكاديمي فرنسي ودبلوماسي ومؤرخ وباحث في الشؤون العربية، متخصص في الإسلام المعاصر ولد في باريس 1961، ودرس في معهد العلوم السياسية في باريس، ثم حصل على دبلوم المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية باللغتين العربية والصينية، وصار ممثلًا للاتحاد الدولي لحقوق الانسان في لبنان خلال فترة الحرب الأهلية.

كان رئيسًا للبعثة الفرنسية في سورية (1996 - 1999) وفي تونس (2002 -2006)، وكان مستشارًا دبلوماسيًا لوزير الداخلية الفرنسي (1990 - 1991)، ووزير الدفاع (1991 - 1993)، ورئيس الوزراء(2000 - 2002) وكان أحد الخبراء العشرة المستقلين الذين عينهم الرئيس فرانسوا هولاند للأسهام في الكتاب الأبيض عام 2013 للدفاع الوطني والأمن الوطني، وهو أستاذ في "معهد باريس للدراسات السياسية"، وأستاذ زائر في جامعة "جورج تاون" في الولايات المتحدة.

كتب حوالي عشرة كتب، بما في ذلك "الثورة العربية"، و "عشرة دروس من الانتفاضة الديموقراطية"، و "أكتب لكم من حلب في قلب سورية الثورة". ووصف الجدل المتعارض بين الجهاد المحلي والعالمي، وأبرز كيف تحاول الحركات المتطرفة "تحديث" المفاهيم التقليدية، وترجمت أعماله ونشرت في اثنتي عشرة لغة.

السعر: 9 دولارات





9 786052 260654

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر